

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الأول

دار الشعب

٩٢ شارع التحرير، القاهرة ١١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله أولاً ، حمداً كثيراً متوالياً ، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين . وأصلي وأسلم على رسله ثانياً ، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين . وأستخيرہ تعالي ثالثاً فيما أنبعت له عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين . وأنتدب لقطع تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف في التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين

فلقد حلّ عن لساني عقدة الصمت ، وطوقني عهدة الكلام وقلادة النطق ، ما أنت مشاير عليه من العمي عن جليلة الحق ، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلاً عن مراسم الخلق ، ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم ، إلي العمل بمقتضى العلم : طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالي به من تركية النفس وإصلاح القلب ، وتداركا لبعض ما فرط من إضاعة العمر يأساً من تمام التلافي والجبر ، وانحيازاً عن غمار من قال فيهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأثمنت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحد من دركها فرجعت بكلامها . أحمده وأستعين له من مظالم أنقضت الظهور بأشغالها ، وأعبده وأستعين به لعظام الأمور وعضالها . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حلول الدركات وأهوالها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به بحر الإيمان من ظلمة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصفاها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

(وبعد) فلما وفق الله تعالى لا كمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين في سنة إحدى وخمسين « هـ » تعذر الوقوف على بعض أحاديثه ، فأخرت تبليغه الى سنة ستين ، فظفرت بكثير مما عذب عنى علمه ، ثم شرعت في تبليغه في مصنف متوسط حجمه ، وأنا مع ذلك متباطئ في إكمالها غير متعرض لتركه وإهماله . إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه ، وتكرر السؤال من جماعة في إكمالها ، فأجبت وبادرت إليه ، ولكنني اختصرته في غاية الاختصار ، ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار . فالتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابه ومخرجه وبيان

« هـ » أي بعد السبعائة ، وكان رحمه الله إذ ذاك في السابعة والعشرين من عمره . اهـ مصححه

صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه^(١): « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ »

ولعمري إنه لا سبب لإضرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجهم الغفير؛ بل شمل الجماهير، من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر، والجهل بأن الأمر إبدى، والخطب جد، والآخرة مقبلة، والدنيا مدبرة، والأجل قريب، والسفر بعيد، والزاد طفيف والخطر عظيم، والطريق سدى، وماسوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الفوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد

فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء؛ وقد شغرت منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد يعاجل حظه مشغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى ظل علم الدين مندرساً، ومنازل الهدى في أقطار الأرض منطمساً. ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستمين به القضاة على فصل الخصام، عند تهاوش الطغام؛ أو جدل يتدفع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإخام؛ أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام؛ إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام، وشبكة للحطام

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح، مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً

صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه، فان ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والناظرة، وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول. والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول.

فان كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه اليه، وإلا عزوته إلى من خرجته من بقية السنة، وحيث كان في أحد السنة لم أعزه إلى غيرها إلا لفرض صحيح، بأن يكون في كتاب الزم مخرجه الصحة، أو يكون أقرب إلى لفظه في الأحياء. وحيثكرر المصنف ذكر الحديث فان كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة، وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لفرض أو لدهول عن كونه تقدم، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونهيت على أنه قد تقدم، وربما لم أنه على تقدمه لدهول عنه. وحيث عزوت الحديث لمن خرجته من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه، بل قد يكون بلفظه، وقد يكون بمعنى أو باختلاف على قاعدة المستخرجات. وحيث لم أجده ذلك الحديث ذكرت ما يعني عنه غالباً، وربما لم أذكره.

وسيته « المعنى عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الأحياء من الأخبار » جعله الله خالصاً لوجهه الكريم، ووسيلة إلى النعم المقيم.

— أحاديث الخطبة —

(١) حديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه؛ الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف

وحكمة، وعلما وضياء ونوراً، وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً؛ وصار نسياً منسياً
ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، وخطباً مدطباً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب
مهما، إحياءاً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لما هي العلوم النافعة
عند النبيين والسلف الصالحين

وقد أسسته على أربعة أرباع، وهى : ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات،
وربع المنجيات . وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم، لا كشف أولاً عن العلم الذى
تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)
« طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وأميز فيه العلم النافع من الضار، إذ قال صلى الله عليه
وسلم: « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » وأحقق ميل أهل العصر عن شائكة الصواب، وانخداعهم
بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن الباب
ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة
وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة
القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات
وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال
والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب
السفر، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب
المعيشة وأخلاق النبوة

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة
البطن، وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد، والحسد

(١) حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم : ابن ماجه من حديث أنس وضعه احمد والبيهقي وغيرهما

(٢) حديث نعوذ بالله من علم لا ينفع : ابن ماجه من حديث جابر باسناد حسن

وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر ،
والعجب ، وكتاب ذم الغرور

وأما ربيع المنجيات ، فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ،
وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق
والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت
فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ،
ما يضطر العالم العامل اليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه . وأكثر ذلك مما
أهل في فن الفقهيات

وأما ربيع العادات ، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق
سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغنى عنها متدين

وأما ربيع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القراءان بإمانيته وتركه النفس عنه
وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه
الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها تترتب ، ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة
التي بها يتخلص . كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار

وأما ربيع المنجيات ، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين
والصديقين ، التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ،
وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تتعرف ، وفضيلتها التي
لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل

ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة
أمور : (الأول) حل ما عقده وكشف ما أجهله . (الثاني) ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه
(الثالث) إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه . (الرابع) حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه
(الخامس) تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً ، إذ الكل
وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه
لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه ، أو لا ينفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراد في الكتب

أو لايسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف . فهذه خواص هذا الكتاب ، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم

وإنما حملني علي تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران :

(أحدهما وهو الباعث الأصلي) : أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهم كالضروري ؛ لأن العلم الذي يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعني بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به . والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب ، وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق اليه ؛ ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والارشاد اليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيحاء على سبيل التمثيل والاجمال ، علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء ورثة الأنبياء ، فإلهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاعتداء

ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعني العلم بأعمال الجوارح ، وإلى علم باطن ، أعني العلم بأعمال القلوب . والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم . فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين : ظاهر ، وباطن ، والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ، ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام

(الباعث الثاني) : أتى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى ، المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات . وهو مرتب علي أربعة أرباع ، والمزني بزى المحبوب محبوب ، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب . ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب ، فوضعه على هيئة تقويم النجوم ، موضوعاً في الجداول والرقوم ، وسماه تقويم الصحة ، ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة ، والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد ، أم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد

فثمره هذا العلم طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه
الطب الذى يعالج به الأجساد، وهي معرضة بالضرورة للفساد فى أقرب الآماد ؟ فنسأل الله
سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد .

كتاب العالم

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) في فضل العلم والتعليم والتعلم . (الباب الثاني) في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم ، وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين ، وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا . (الباب الثالث) فيما تعدد العامة من علوم الدين وليس منها ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره . (الباب الرابع) في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل . (الباب الخامس) في آداب المعلم والمتعلم . (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء ، والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . (الباب السابع) في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدا من القرآن قوله عز وجل : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثالث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفا وفضلا ، وجللاء ونبلا . وقال الله تعالى (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . قال ابن عباس رضى الله عنهما : «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام» . وقال عز وجل : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) . وقال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . وقال تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) . وقال تعالى : (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ) (تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) بين أن عظم

قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى : (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ)
 وقال تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)
 ردَّ حكمه في الوقائع إلى استنباطهم ، وألحق رتبهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله
 وقيل في قوله تعالى (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ) يعني العلم
 (وَرِيشًا) يعني اليقين (وَلِبَاسُ التَّقْوَى) يعني الحياء

وقال عز وجل : (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) . وقال تعالى : (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ
 بِعِلْمٍ) . وقال عز وجل : (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) . وقال تعالى : (خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ عَالِمَهُ الْبَيِّنَاتِ) . وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان

(وأما الأخبار) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقِهْهُ فِي
 الدِّينِ وَيُلْهِمَهُ رُشْدَهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » . ومعلوم أنه لارتبة
 فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الورثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « يَسْتَغْفِرُ
 الْعَالَمِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وأي منصب يزيد على منصب من تشغل ملائكة السموات
 والأرض بالاستغفار له ، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه
 وسلم ^(٤) « إِنَّ الْحِكْمَةَ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَتَرْفَعُ الْمَمْلُوكَ حَتَّى يُدْرِكَ مَدَارِكَ الْمُلُوكِ » .
 وقد نبه بهذا على ثمرته في الدنيا ، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى
 وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « خَصَلْتَانِ لَا يَكُونَانِ فِي مُنَافِقٍ : حُسْنُ سَمْتٍ ، وَفِقَةٌ فِي
 الدِّينِ » . ولا تشكك في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان ، فانه ما أراد به الفقه الذي ظننته ،

﴿ كتاب العلم — الباب الأول ﴾

- (١) حديث من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده : متفق عليه من حديث معاوية دون قوله ويلهمه رشده . وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير
- (٢) حديث العلماء ورثة الأنبياء : أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء
- (٣) حديث يستغفر للعالم ما في السموات وما في الأرض : هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم
- (٤) حديث الحكمة تزيد الشريف شرفاً - الحديث : أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في بيان العلم وعبد الغنى الأزدي في آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف
- (٥) حديث خصلتان لا يجتمعان في منافق - الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب

وسياثي معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَفْضَلُ النَّاسِ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ الَّذِي إِنْ أَحْتَجَّ إِلَيْهِ نَفَعَ ، وَإِنْ اسْتُغْنِيَ عَنْهُ أَغْنَى نَفْسُهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ وَتَمَرَّتُهُ الْعِلْمُ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ ، أَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ فَدَلُّوا النَّاسَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجِهَادِ فَجَاهِدُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « لَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ » . وقال عليه الصلاة والسلام ^(٥) « النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فُقُّهُوا » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ بِدِمِ الشُّهَدَاءِ »

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٧) « مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَلْسِنَةِ حَتَّى يُؤَدِّيَهَا إِلَيْهِمْ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٨) « مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهًا عَالِمًا » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٩) « مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال صلى الله

(١) حديث أفضل الناس المؤمن العالم الحديث : البيهقي في شعب الإيمان موقوفا على أبي الدرداء بأسناد ضعيف ولم أره مرفوعا

(٢) حديث الإيمان عريان - الحديث : الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بأسناد ضعيف

(٣) حديث أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد - الحديث : أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بأسناد ضعيف

(٤) حديث لموت قبيلة أيسر من موت عالم - الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء : وأصل الحديث عند أبي الدرداء

(٥) حديث الناس معادن - الحديث : منفق عليه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء - ابن عبد البر : من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف

(٧) حديث من حفظ علي أمتي أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة - ابن عبد البر : في العلم من حديث ابن عمر وضعفه

(٨) حديث من حمل من أمتي أربعين حديثا لقي الله يوم القيامة ققيها عالما - ابن عبد البر : من حديث أنس وضعفه

(٩) حديث من تفقه في دين الله كفاه الله همه - الحديث : الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزي الزبيدي بأسناد ضعيف

عليه وسلم « أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِنِّي عَلِيمٌ أَحِبُّ كُلَّ عَالِمٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْعَالِمُ أَمِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْأَرْضِ »
 وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ ، وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ النَّاسُ : الْأُمَرَاءُ وَالْفُقَهَاءُ ». وقال عليه السلام ^(٣) « إِذَا أَتَى عَلَى يَوْمٍ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا يُقَرَّبُنِي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسٍ ذَلِكَ الْيَوْمِ ». وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة ^(٤) « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنِي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي ». فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم ، وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ، ولولاه لم تكن عبادة

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ : الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ » فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٧) « مَا عُبِدَ اللَّهُ تَعَالَى بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهِهِ فِي الدِّينِ ، وَلَفَقِيهِ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنَ أَلْفِ عَابِدٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الْفِقْهُ ». وقال صلى الله عليه

(١) حديث أوحى الله إلى إبراهيم بإبراهيم إلى عليم أحب كل عليم : ذكره ابن عبد البر تعليقا ، ولم أظفره بأسناد

(٢) حديث العالم أمين الله في الأرض ؛ ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس - الحديث : ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربني الحديث : الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن

عبد البر في العلم من حديث عائشة بأسناد ضعيف

(٥) حديث فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي : الترمذي من حديث أبي أمامة وقال

حسن صحيح

(٦) حديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب : أبو داود والترمذي

والنسائي وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم

(٧) حديث يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء : ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بأسناد ضعيف

(٨) حديث ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين - الحديث : الطبراني في الأوسط وأبو بكر الآجري في

كتاب فضل العلم وأبو نعيم في رياضة المعلمين من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف ، وعند الترمذي و

ابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف . فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد

وسلم^(١) «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، وَخَيْرُ الْعِبَادَةِ الْفَقَهُ». وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) «فَضْلُ الْمُؤْمِنِ الْعَالِمِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَابِدِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً». وقال صلى الله عليه وسلم^(٣) «إِنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنِ كَثِيرٍ فَقَهَاؤُهُ قَلِيلٌ قُرْأُوهُ وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ سَأَلُوهُ كَثِيرٌ مُعْطَوْهُ، الْعَمَلُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فَقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مُعْطَوْهُ كَثِيرٌ سَأَلُوهُ، الْعِلْمُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ». وقال صلى الله عليه وسلم^(٤) «بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْعَابِدِ مِائَةٌ دَرَجَةٍ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حُضْرُ الْجَوَادِ الْمُضَرَّ سَبْعِينَ سَنَةً». وقال يارسول الله^(٥) «أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقِيلَ: أَيُّ الْعِلْمِ تُرِيدُ؟ قَالَ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَقِيلَ لَهُ: نَسْأَلُ عَنِ الْعَمَلِ وَتَجِيبُ عَنِ الْعِلْمِ؟ فَقَالَ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ يَنْفَعُ مَعَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ، وَإِنَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ». وقال صلى الله عليه وسلم^(٦) «يَبْعَثُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ الْعُلَمَاءَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَشَرَّ الْعُلَمَاءِ إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ إِلَّا لِعِلْمِي بِكُمْ، وَلَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ لِأَعَذِّبَكُمْ، أَذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». نَسْأَلُ اللَّهَ حَسَنَ الْخَاتِمَةِ

(وأما الآثار): فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لسكريل: يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه

(١) حديث خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه - ابن عبد البر: من حديث أنس بسند ضعيف، والشرط الأول عند أحمد من حديث معجب بن الأدرع باسناد جيد، والشرط الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٢) حديث فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة: ابن عدي من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف

(٣) حديث إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه: الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه. وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف

(٤) حديث بين العالم والعابد مائة درجة: الأصفهاني في الترهيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال: سبعون درجة، بسند ضعيف. وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة

(٥) حديث قيل له يارسول الله أي الأعمال أفضل؟ فقال العلم بالله - الحديث: ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء - الحديث: الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف

النفقة والعلم يزكو بالانفاق . وقال عليّ أيضاً رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم تلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه . وقال رضى الله تعالى عنه نظماً :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففر بعلم تعيش حياً به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شيء أعزّ من العلم : الملوكُ حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خيرُ سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه . وسئل ابن المبارك من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل فمن السُّفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين . ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم . فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه ، ولا ليجامع فإن أخس المصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فاته من أدرك العلم !

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا أُوتِيَ خَيْرًا مِنْهُ فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى » . وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس للريض إذا منع الطعام والشراب يموت ؟ قالوا بلى ، قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق ، فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض ، وموته لازم ، ولكنه لا يشعر به ، إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا ، فاذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه ، وتحسر تحسراً عظيماً لا ينفعه ، وذلك كإحساس الآمن من خوفه ، والمفقق من سكره ، بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء ، فإن الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا

وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء .
وقال ابن مسعود رضى الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعته موت رواته ، فوالذي نفسى
بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فإن
أحدًا لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : تذاكرُ العلم بعض ليلة أحب
إلى من إحيائها . وكذلك عن أبي هريرة رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن في
قوله تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) : إن الحسنة في الدنيا هي العلم
والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أى الأشياء تقتنى ؟ قال : الأشياء التى
إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم ، وقيل أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال
بعضهم : من اتخذ الحكمة لجأما اتخذه الناس إماما ، ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار
وقال الشافعى رحمه الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب اليه ولو فى شىء حقير
فرح ، ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضى الله عنه : يأبىها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه
رداءه يحبه ؛ فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه ؛ فإن أذنب ذنبا استعته ثلاث مرات
لثلا يسلبه رداءه ذلك وإن تناول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء
أن يكونوا أربابا ؛ وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مصيره . وقال سالم بن أبى الجعد : اشتراى
مولاى بثلمائة درهم وأعتقنى ، فقلت بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم ، فقامت لى سنة حتى
أتانى أمير المدينة زائرا فلم آذن له

وقال الزبير بن أبى بكر : كتب إلى أبى بالعراق : عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك
مالا ؛ وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك فى وصايا لقمان لابنه ؛ قال : يا بنى جالس العلماء
وزاحمهم بركبتك ؛ فإن الله سبحانه يحى القلوب بنور الحكمة كما يحى الأرض بوابل السماء .
وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى
ذكره . وقال الزهري رحمه الله : العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكران الرجال

فضيلة التعلم

(أما الآيات) فقله تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) .
 وقوله عز وجل: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)
 (وأما الأخبار) فقله صلى الله عليه وسلم^١: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» . وقال صلى الله عليه وسلم^٢: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ» . وقال صلى الله عليه وسلم^٣: «لَأَنْ تَعْدُو فَتَعْلَمَ بِأَبَا مِنْ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ» . وقال صلى الله عليه وسلم^٤: «بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» . وقال صلى الله عليه وسلم^٥: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ» وقال صلى الله عليه وسلم^٦: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» وقال عليه الصلاة والسلام^٧: «الْعِلْمُ خَزَائِنُ مَفَاتِيحِهَا السُّؤَالُ؛ أَلَا فَاسْأَلُوا فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، وَالْعَالِمُ، وَالْمُسْتَمِعُ، وَالْمُحِبُّ لَهُمْ» . وقال صلى الله عليه وسلم^٨: «لَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى

(١) حديث من سلك طريقاً يطلب فيه علماً - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع : أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال

(٣) حديث لأن تعدو فتعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة : ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذلك والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر

(٤) حديث باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا : ابن حبان في روضة العقلاء وابن عبد الله موقوفاً على الحسن البصري ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ خير له من مائة ركعة ، رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر

(٥) حديث اطلبوا العلم ولو بالصين : ابن عدى والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس قال البيهقي متنه مشهور وأسانيده ضعيفة

(٦) حديث العلم خزان مفاتيحها السؤال - الحديث : رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعاً بإسناد ضعيف

(٧) حديث لا ينبغي للجاهل أن يسكت علي جهله : الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السني وأبو نعيم في رياضة المعلمين من حديث جابر بسند ضعيف

(*) انظر تخريجه في صفحة ٣١

جَهْلِهِ وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ . وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه^(١) « حُضُورُ مَجْلِسِ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ ، وَعِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ ، وَشُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ » فقيل يارسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ يَنْفَعُ الْقُرْآنُ إِنْ لَا بِالْعِلْمِ ؟ » وقال عليه الصلاة والسلام^(٢) : « مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُخَيَّرَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَيَبْتِغِيهِ وَيَبَيِّنَ الْأَنْبِيَاءَ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَةً وَاحِدَةً »

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضى الله عنهما: ذلت طالبا فعززت مطلوبيا . وكذلك قال ابن أنى مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس : إذا رأيت أنه رأيت أحسن الناس وجها ؛ وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا ؛ وإذا أفنى فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ! وقال بعض الحكماء : إني لا أرحم رجلا كرحمتي لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ؛ ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة . وقال أيضا : العالم والمتعلم شريكان في الخير ؛ وسائر الناس همج لا خير فيهم . وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ، ولا تكن الرابع قتهلك وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلي ، فقال : يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله

فضيلة التعليم

(أما الآيات) فقوله عز وجل : (وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) . والمراد هو التعليم والارشاد ، وقوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ

(١) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث : ذكره ابن الجوزي في الموضوعات

من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر

(٢) حديث من جاءه الموت وهو يطلب العلم - الحديث : الدارمي وابن السني في رياضة المتعلمين من حديث

الحسن ، فقيل هو ابن علي وقيل هو ابن يسار البصري فيكون مرسلا

لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى: (وَأَنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة: (وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا آتَى اللَّهُ عَالِمًا عِلْمًا إِلَّا وَأَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيثَاقِ مَا أَخَذَ عَلَى النَّبِيِّينَ أَنْ يَشْهَدُوا لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ ». وقال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) . وقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) . وقال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(وأما الأخبار) فقولہ صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن ^(٢) «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَنْ تَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أُعْطِيَ ثَوَابَ سَبْعِينَ صَدِيقًا » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم: « مَنْ عِلَّمَ وَعَمِلَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَابِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فيقولُ العلماءُ: بِفَضْلِ عِلْمِنَا تَعَبَدُوا وَجَاهَدُوا ، فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْتُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي، أَشْفَعُوا تُشَفَّعُوا ، فيشفعون ثمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم ، لا العلم اللازم الذى لا يتعدى

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ

(١) حديث ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين - الحديث : أبو نعيم في فضل

العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفي الخلفيات نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث قل لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حجر النعم : أحمد

من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلى

(٣) حديث من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً : رواه أبو منصور الديلمي في مستند

الفرديوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٤) حديث إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة - الحديث : أبو العباس

الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٥) حديث إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس - الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ إِلَّا رُؤُسَاءُ جُهَاًلًا إِنْ سُئِلُوا أَفْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) «مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «نِعْمَ الْعَطِيَّةُ وَنِعْمَ الْهَدِيَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُهَا فَتَطْوِي عَلَيْهَا ثُمَّ تَحْمِلُهَا إِلَى أَخٍ لَكَ مُسْلِمٍ تُعَلِّمُهُ إِيَّاهَا تَعْدِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَا وَلَاهُ أَوْ مُعَلِّمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) «مَا أَفَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ فَائِدَةً أَفْضَلَ مِنْ حَدِيثٍ حَسَنٍ بَلَغَهُ فَبَلَغَهُ». وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) «كَلِمَةٌ مِنَ الْخَيْرِ يَسْمَعُهَا الْمُؤْمِنُ فَيَعْلَمُهَا وَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ». وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٧) ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه، والثاني يعلمون الناس، فقال: «أَمَّا هَؤُلَاءُ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءُ فَيَعْلَمُونَ النَّاسَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا» ثم عدل إليهم وجلس معهم

(١) حديث من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بليجام من نار: أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان

والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حديث حسن

(٢) حديث نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها - الحديث: الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف

(٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها - الحديث: الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن غريب

(٤) حديث إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر

ليصلون على معلم الناس الخير: الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب وفي نسخة حسن صحيح

(٥) حديث ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن - الحديث: ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر

مرسلاً نحوه، ولأبي نعيم من حديث عبد الله بن عمرو ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة بزيده هدي أو زوده عن ردى

(٦) حديث كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها - الحديث: ابن المبارك في الزهد والرقائق من

رواية زيد بن أسلم مرسلاً نحوه، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: كلمة

حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة

(٧) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله - الحديث:

ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْفَيْتِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ قِيلَتِ الْمَاءُ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ أُمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَعَّعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيَعَانُ لَا تُعْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا » . فالأول ذكره مثلاً للمتفع بعلمه ، والثاني ذكره مثلاً للنافع ، والثالث للمحروم منهما .

وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : عِلْمٌ يَنْتَفِعُ بِهِ » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْخَيْرِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : عَلَى خُلَفَائِي رَحْمَةُ اللَّهِ ، قِيلَ : وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ ؟ قَالَ : الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنتِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللَّهِ » (وأما الآثار) فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : مُعَلِّمُ النَّاسِ الْخَيْرَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَوْتُ فِي الْبَحْرِ . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه ، فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فكث لا يسأله إنسان ، فقال : اُكْرُوا لِي لَا أُخْرِجَ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ ، هَذَا بَلَدٌ يَمُوتُ فِيهِ الْعِلْمُ ! وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به . وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألني عن شيء !

(١) حديث مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى - الحديث : متفق عليه من حديث أبي موسى

(٢) حديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة

(٣) حديث الدال على الخير كفاعله : الترمذي من حديث أنس وقال غريب ورواه مسلم وأبو داود

والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدرى بلفظ من دل على خير فله مثل أجر فاعله

(٤) حديث لا حسد إلا في اثنتين - الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث على خلفائي رحمة الله - الحديث : ابن عبد البر في العلم والمروى في ذم الكلام من حديث الحسن قبل هو

ابن علي وقيل ابن يسار البصري فيكون مرسلًا ولابن السني وأبي نعيم في رياضة المتعلمين من

حديث على نحوه

وقال بعضهم . العلماء سُرج الا زمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره .
وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس
من حدّ البهيمة الى حدّ الانسانية . وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمنًا . قيل : وما هو ؟ قال :
أن تضعه فيمن يُحسن حمّله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله
عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم ؛ قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من
نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

وقيل : أول العلم الصمت ؛ ثم الاستماع ؛ ثم الحفظ ؛ ثم العمل ؛ ثم نشره . وقيل : علم
علمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل ؛ فانك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت
ما علمت .

وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيته أيضاً مرفوعاً : ^(١) تعلّموا العلم فإن تعلّمه لله
خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله
لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ؛ والمصبر على
السراء والضراء ، والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به
أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة مُهداة يقتدى بهم ، أدلة في الخير تُقتصّ آثارهم وترمق أفعالهم ،
وترغب الملائكة في خلّتهم وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيطان البحر
وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور
الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ،
والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه
يوحد ، وبه يعجد ، وبه يتورّع ، وبه توصل الأرحام . وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام
والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . نسأل الله تعالى حسن التوفيق

(١) حديث معاذ تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة - الحديث بطوله : أبو الشيخ وابن حبان في
كتاب الثواب وابن عبد البر وقال ليس له اسناد قوى

في الشواهد العقلية :

إعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيدا حكيم أم لا وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها والفضيلة مأخوذة من الفضل وهو الزيادة ، فاذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بزيادة يقال : فضله وله الفضل عليه ، مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء ، كما يقال الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حمار اختص بسلمة زائدة لم يقل إنه أفضل ، لأن تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى ، وليست من الكمال في شيء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه . فاذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الحيوانات ، بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنه وصف كمال الله سبحانه ، وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد ، فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة .

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره ، وإلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا . فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره الدرام والدنانير ، فأنهما حيران لا منفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يترقضاء الحاجات بهما لكانا والحصاب بمثابة واحدة . والذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة ، ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ، ومطلوبة للمشي بها ، والتوصل إلى المآرب والحاجات وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيدا في نفسه ، فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها ، وذريعة إلى القرب من الله تعالى ، ولا يتوصل إليه إلا به . وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية ، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ،

ولن يتوصل اليها إلا بالعلم والعمل ، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالمعلم بكيفية العمل . فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم ، فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته ، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين ، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى . هذا في الآخرة

وأما في الدنيا فالعز والوقار ، ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام في الطباع ، حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة ، بل البهيمة بطبعها توفر الانسان لشعورها بتميز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها .

هذه فضيلة العلم مطلقاً . ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لامحالة فضائلها بتفاوتها وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل ، فكان تعليمه إفادة للأفضل . وبيانه : أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلاً ، لا لمن يتخذها مستقراً ووطناً ، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين ، وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لا قوام للعالم دونها وهي أربعة : الزراعة وهي للمطعم ، والحياكة وهي للملبس ، والبناء وهو للمسكن ، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع ، والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

(الثاني) ماهى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة ، فإنها تخدم الزراعة ، وجملة من الصناعات باعداد آلاتها كالخلاجة والغزل ، فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها (الثالث) ماهى متممة للأصول ومزينة : كالطحن والخبز للزراعة ، وكالتقصرة والخياطة للحياكة ، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملة ، فإنها ثلاثة أضرب أيضاً : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ،

ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات .
ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناعات .

والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى في الدنيا والآخرة
على أربع مراتب : الأولى وهي العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام ، وحكمهم على الخاصة
والعامة جميعاً في ظاهريهم وباطنيهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين ، وحكمهم على
الخاصة والعامة جميعاً ، ولكن على ظاهريهم لا على باطنيهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل
وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على
الاستفادة منهم ، ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالالزام والمنع والشرع . والرابعة :
الوعاظ ، وحكمهم على بواطن العوام فقط . فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة : إفادة
العلم ، وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة ، وإرشادهم إلى الأخلاق الحميدة
المسعدة ، وهو المراد بالتعليم

وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات ، لأن شرف الصناعة يعرف
بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية
على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالنظر
إلى عموم النفع : كفضل الزراعة على الصياغة ؛ وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف : كفضل
الصياغة على الدباغة ، إذ محل أحدهما الذهب ، ومحل الآخر جلد الميتة .

وليس يخفى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء
الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتى بيانه ، إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى
جوار الله سبحانه

وأما عموم النفع فلا يستراب فيه ، فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة
وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف
موجود على الأرض جنس الانس ، وأشرف جزء من جواهر الانسان قلبه ، والمعلم مشغول بتكميله
وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل
فتعليم العلم من وجه عبادة الله تعالى ، ومن وجه خلافة الله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله

فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أخص صفاته ، فهو كالحازن لأنفس خزائنه ، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه . فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى ، وسياقهم إلى جنة المأوى ؟ جعلنا الله منهم بكرمه ! وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثاني

في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما ، وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة

بيان العلم الذى هو فرض عين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « اَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ * »

واختلف الناس في العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، ففترقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصده ، فقال : المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ، ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته . وقال النحويون : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وعَنَوْا به ما يحتاج إليه الآحاد ، دون الوفائع النادرة . وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم : فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ، ومقامه من الله عز وجل ، وقال بعضهم : هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز كلمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك ، وصرفوا اللفظ عن عمومهم . وقال أبو طالب المكي : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مباني الاسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » إلى آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس ، فيجب العلم بكيفية العمل فيها ، وبكيفية الوجوب .

(١) حديث بنى الاسلام على خمس : متفق عليه من حديث ابن عمر * راجع تخريجه في ص ١٥

والذى ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يسترىب فيه ما سئذ كره ، وهو : أن العلم كما قدّمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك . فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً ، فأول واجب عليه تعلّم كلتي الشهادة وفهم معناهما ، وهو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويمتدّده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلّم دليل ، فإذا فعل ذلك فقد أدّى واجب الوقت ، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له

وإنما يجب غير ذلك بموارض تعرض ، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص ، بل يتصوّر الانفكاك عنها ، وتلك الموارض إما أن تكون في الفعل ، وإما في الترك ، وإما في الاعتقاد .

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر ، فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه ، فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل ، فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا في بقية الصلوات .
فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم ، وهو يعلم أن وقته من الصبح إلى

﴿ الباب الثاني ﴾

(١) حديث اكفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلّم دليل مشهور في كتب السير والحديث ، فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة

غروب الشمس ، وأن الواجب فيه النية والامساك عن الأكل والشرب والوقاع ، وأن ذلك يتبادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين .

فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه ، لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه في الحال ، إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الاسلام ، فإن لم يملك الا الابل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الابل ، وكذلك في سائر الأصناف .

فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة الى علم الحج ، مع أن فعله على التراخي ، فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغي لعلماء الاسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا ، حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة ، فعنه ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نفل ، فعلمه أيضا نفل ، فلا يكون تعلمه فرض عين . وفي تحريم السكوت على التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين .

وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص اذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ، ولا على البدوى تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضا واجب بحسب ما يقتضيه الحال ، فإعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه ، وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه ، كما لو كان عند الاسلام لابسا للحريز أو جالسا في القصب أو ناظرا الى غير ذى محرم ، فيجب تعريفه بذلك ، وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتنا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به الى إزالة الشك ، فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم ، وأنه مرئي ، وأنه ليس محلا للحوادث ، الى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات ، فقد مات على الاسلام إجماعا . ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع ، وبعضها يخطر بالسمع من أهل البلد ،

فان كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع ، فينبغي أن يسان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق ، فانه لو ألقى اليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه ، وربما عسر ذلك ، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع في البلد معاملة الربا ، وجب عليه تعلم الحذر من الربا . وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين . ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب ؛ فمن علم العلم للواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين

وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضا ، ولكن في حق من يتصدى له ، فاذا كان الغالب أن الانسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد ، فيلزمه أن يتعلم من علم ربيع المهلكات ما يرى نفسه محتاجا اليه ؛ وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^(١) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شَحْ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » . ولا ينفك عنها بشر . وبقية ما سذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات ، وإزالتها فرض عين . ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ، ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها ، فان من لا يعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده ، وكيف يمكن دون معرفة السبب والسبب ؟ وأكثر ما ذكرناه في ربيع المهلكات من فروض الأعيان ، وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعني .

ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه اليه اذا لم يكن قد انتقل عن ملة الى ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار ، والحشر والنشر ، حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تنمة كلتي الشهادة ، فانه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا ينبغى أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها ، وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار . فاذا انتهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو في مجارى أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه ، فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النواذر ، ويلزمه المبادرة الى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا . فاذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالآلف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »

(١) حديث ثلاث مهلكات شح مطاع - الحديث : البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف

علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير . فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه ، والله أعلم

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

أعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة الى الفرض الذي نحن بصدد تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل اليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة . فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والى ماهو مباح . فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم الى ماهو فرض كفاية ، والى ماهو فضيلة وليس بفريضة

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا : كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها حرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كني وسقط الفرض عن الآخرين ، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات : كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحجابة والخياطة ، فانه لو خلا البلد من الحجاج تسارع الهلاك اليهم ، وخارجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد الى استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك ما يستغني عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج اليه

وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات ، وعلم الشعبة والتليسات
وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه
وأما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان ، فهي محمودة كلها ، ولكن قد يلتبس بها ما يظن

أنها شرعية وتكون مذمومة ؛ فتقسم الى المحمودة والمذمومة أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتمات ، وهي أربعة أضرب :

الضرب الأول : الأصول - وهي أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه السلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . والاجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة ، فهو أصل في الدرجة الثالثة ، وكذا الأثر ، فإنه يدل على السنة ، لأن الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل ، وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه ، وربما لا تحيط العبارات بما أدركه بالقرائن ، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم ، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ، ولا يليق بيانه بهذا الفن

الضرب الثانى : الفروع - وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بعمان تنبه لها العقول فأتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره ، كما فهم من قوله عليه السلام : (١) « لَا يَقْضِي الْقَاضِي وَهُوَ غَضْبَانٌ » أنه لا يقضى إذا كان حاقنا أو جائئا أو متألمًا بعرض . وهذا على ضربين : أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه ، والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثانى ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة ، وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه ، وهو الذى يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعنى جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومته العلم بما يترشح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها ، وهو الذى يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب

والضرب الثالث : المقدمات - وهي التى تجرى منه مجرى الآلات : كعلم اللغة والنحو فأنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع ، إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب ، وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة . ومن الآلات علم كتابة الخط ، إلا أن ذلك ليس ضروريا ، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) أميًا . ولو تصور

(١) حديث لا يقضى القاضى وهو غضبان : متفق عليه من حديث أبى بكر

(٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًا أى لا يحسن الكتابة : ابن مردويه فى التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا أنا محمد النبي الأمي وفيه ابن لهيعة ، وابن جبان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن متعود قولوا اللهم صل على محمد النبي الأمي . والبخاري من حديث البراء : وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب

استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضروريا

الضرب الرابع : المتهمت - وذلك في علم القراءان ، فإنه ينقسم الى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، والى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير فان اعتماده أيضا على النقل ، إذ اللغة بمجرد ما تستقل به ، والى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة النسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والنص والظاهر ، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ، ويتناول السنة أيضا .

وأما المتهمت في الآثار والأخبار ، فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم ، وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة في الرواة . والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند ، وكذلك ما يتعلق به . فهذه هي العلوم الشرعية ، وكلها محدودة بل كلها من فروض الكفايات .

فان قلت : لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا ، ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم ، وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لا تقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات ، فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا . ولعمري إنه متعلق أيضا بالدين ، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان . فالدين أصل والسلطان حارس ، ومالا أصل له فهودوم ، ومالا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان ، وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه

وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى ، بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة . فعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرة تحرس

من العرب في الطريق ، ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان ، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع . وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة . ويدل على ذلك ما روى مسنداً ^(١) « لا يُفْتَى النَّاسُ إِلَّا ثَلَاثَةً : أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُتَكَلِّفٌ » . فالأمير هو الامام وقد كانوا هم المفتين ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما ، وهو الذي يتقصد تلك المهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحترزون عن الفتوى حتي كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه ، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفي بعض الروايات بدل المتكلف المرائي ، فان من تقصد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال .

فان قلت : هذا إن استقام لك في أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام . فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة : الاسلام ، والصلاة ، والزكاة ، والحلال والحرام . فاذا تأملت منتهي نظر الفقيه فيها ، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة . وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر .

أما الاسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد ، وفي شروطه ، وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان ، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب السيوف والسلطنة عنه حيث قال : ^(٢) « هَلَّا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ » للذي قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت ظلال السيوف ؛ مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ، ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والجيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف ، فان السيف ممتد إلى رقبته ، واليد ممتدة إلى ماله ، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادامت له رقبة ومال ، وذلك في الدنيا ، ولذلك

(١) حديث لا يفتي الناس إلا ثلاثة - الحديث : ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ :

لا يقص على الناس ، وإسناده حسن

(٢) حديث هلا شققت عن قلبه : مسلم من حديث أسامة بن زيد

قال صلى الله عليه وسلم : ^(١) « أُمرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » جعل أثر ذلك في الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال ، بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ؛ وليس ذلك من فن الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب وكان خارجا عن فنه

وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها ، مشغولا بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتي بالصحة ، أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير . فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ، ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه

وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، فحكى ذلك لأبي حنيفة رحمه الله ، فقال : ذلك من فقهه ، وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ؛ ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار

وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب : الأولى - الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة ، وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية ، وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر الثانية - ورع الصالحين ، وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات ، قال صلى الله عليه وسلم : ^(٢) « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ » وقال صلى الله عليه وسلم : ^(٣) « الْإِيْمُ حَزَازُ الْقُلُوبِ »

(١) حديثُ أُمرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمر وابن عمر

(٢) حديثُ دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ : الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي

(٣) حديثُ الْإِيْمُ حَزَازُ الْقُلُوبِ : البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ورواه للعسدي في مسنده موقوفا عليه

الثالثة - ورع المتقين ، وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه الى الحرام ؛ قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالًا بَأْسٌ بِهِ مَخَافَةٌ وَمِمَّا بِهِ بَأْسٌ » وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار الى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجات النشاط والبطر المؤدى الى مقارفة المحظورات

الرابعة - ورع الصديقين ، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر الى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل ؛ وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى الى حرام فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه ، إلا الدرجة الأولى ، وهو ورع الشهود والقضاة وما يقصد في العدالة ، والقيام بذلك لا ينفي الاثم في الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَوْ أَبْصَا أَسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوَكَ وَإِنْ أَفْتَوَكَ » . والفقيه لا يتكلم في حزازات القلوب وكيفية العمل بها ، بل فيما يقدر في العدالة فقط ، فإذا جمع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة ، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل ، كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة في النجوم والشعر . وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة . كيف وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم العمل به ، فكيف يظن أنه علم الظاهر واللعمان والسلم والإجارة والصرف ؟ ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها الى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال

فإن قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد ، وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه علم شرعي

(١) حديث لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به - الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه

والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى

(٢) حديث استفت قلبك وإن أفتوك : أحمد من حديث وابصة

إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع . و(الثاني) أنه لا يستغني عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض ؛ وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأفلون . و(الثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح ، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق الحمودة المنجية في الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فنشؤهما صفاء في المزاج والأخلاط ، وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة

فإن قلت : فصل لي علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير الى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله ، فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة .

فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن ، وذلك غاية العلوم ، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة . وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم : بدعة أو كبر . وقيل : من كان محباً للدنيا أو مصرّاً على هوى لم يتحقق به ؛ وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً ؛ وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته * فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقرّبين ؛ أعنى علم المكاشفة . فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكّيته من صفاته المذمومة ؛ وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة . كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجمّلة غير متضحة ؛ فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين كَلِمَةِ الملك وكَلِمَةِ الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط ، والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى :

(أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) ومعنى قوله تعالى : (وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْخَيْرَآنُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ،
ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ومقارنة
الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب
الدرى في جوف السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد
التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعده الله لعباده
الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من
الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من
ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته .
وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل . وبعضهم يقول : حد معرفة الله عز وجل
ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام ، وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم . فغنى بعلم المكشوفة
أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جليلة الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجرى مجرى البيان الذى
لا يشك فيه . وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها
بقاذورات الدنيا ، وإنما نغنى بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصفيل هذه المرآة عن هذه
الخبائث التى هى الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها
وتطهيرها بالكف عن الشهوات ، والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم ،
فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلأأ فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة
التي يأتى تفصيلها في موضعها ، وبالعلم والتعليم . وهذه هى العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا
يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه ، على سبيل المذاكرة
وبطريق الأسرار . وهذا هو العلم الخفى الذى أراد صلى الله عليه وسلم بقوله : (١) « إِنَّ مِنْ
الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يُجْهَلْ إِلَّا
أَهْلُ الْأَعْتَرَارِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا تَحْقِرُوا عَالِمًا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
لَمْ يَحْقِرْهُ إِذْ آتَاهُ إِيَّاهُ »

(١) حديث من العلم كهية المكنون - الحديث : أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من

حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف .

وأما القسم الثاني وهو علم المعاملة فهو علم أحوال القلب .
 أما ما يحمدها فكما لصبر والشكر ، والخوف والرجاء ، والرضا والزهد والتقوى والقناعة
 والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال ، والاحسان وحسن الظن ، وحسن الخلق
 وحسن المعاشرة ، والصدق والاخلاص . فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي
 بها تكتسب ، وثمرتها وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى ، وما زال حتى يعود ،
 من علم الآخرة

وأما ما يذم فخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل والحقْد ، والحسد والنش ، وطلب
 العلوِّ وحب الثناء ، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع ، والكبر والرياء ، والغضب والأنفة ،
 والعداوة والبغضاء ، والطمع والبخل ، والرغبة والبذخ ، والأشر والبطر ، وتعظيم الأغنياء
 والاستهانة بالفقراء ، والفخر والخيلاء والتنافس ، والمباهاة ، والاستكبار عن الحق والخوض فيما
 لا يعني ، وحب كثرة الكلام ، والصلف والتزين للخلق ، والمداهنة والمعجب ، والاشتغال
 عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة
 الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضعف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة
 السر ، والأمن من مكر الله سبحانه في سلب ما أعطى ، والاتكال على الطاعة ، والمكر
 والخيانة والمخادعة ، وطول الأمل والقسوة والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ،
 والأنس بالخلق والوحشة لفراقهم ، والجفاء والطيش والعجلة ، وقلة الحياء وقلة الرحمة . فهذه
 وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ، ومنابت الأعمال المحظورة .

وأضدادها وهي الأخلاق الحمودة منبع الطاعات والقربات ؛ فالعلم بحدود هذه الأمور
 وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة .
 فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة ؛ كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك
 بسيف سلاطين الدنيا يحكم فتوى فقهاء الدنيا . فنظر الفقهاء في فروض العين ، بالإضافة إلى صلاح
 الدنيا ؛ وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن
 الاخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه ، مع أنه فرض عينه
 الذي في إهماله هلاكه في الآخرة . ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك

مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تحل البلد عن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا، وفي حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والظن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاونون على علم الفقه لاسيما الخلافات والجديليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء، هيئات هيئات! قد اندرس علم الدين بتليس علماء السوء، فالله تعالى المستعان، واليه الملاذ في أن يعيدنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن، ويضحك الشيطان!

وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب، كان الامام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله كيف يفعل كذا وكذا؛ فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول: إن هذا وفق لما أغفلناه. وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلةتهما وكانا يسألانه. وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب ولا سنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «سَلُوا الصَّالِحِينَ وَاجْعَلُوهُ شُورَى بَيْنَهُمْ». ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك؛ وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت. وقال الجنيد رحمه الله: قال لي السري شيخني يوما: إذا قت من عندي فن تجالس؟ قلت المحاسبي فقال: نعم خذ من علمه وأدبه وودع عنك تشقيقه الكلام وردّه على المتكلمين، ثم لما

(١) حديث قيل له كيف نفعل إذا جاء أمر لم نجد في كتاب الله ولا سنة رسوله - الحديث: الطبراني من

حديث ابن عباس فيه عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور

وليت سمعته بقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ، ولا جعلك صوفيا صاحب حديث .
 أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .
 فان قلت : فلم لم تورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو
 محمودان ؟ فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقراءان والأخبار
 مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإمامشاغبة
 بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات ترددها
 الطباع ، وتمحها الأسباع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر
 الأول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدع
 الصارفة عن مقتضى القراءان والسنة ، ونبغت جماعة لفقوا لها شها ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً ،
 فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض السكفيات ، وهو القدر الذي
 يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود سنذكره في الباب الذي
 يلي هذا ، إن شاء الله تعالى .

وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء :

(أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق ، ولا يُمنع عنهما إلا من يُخاف عليه أن
 يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ، فان أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان
 الضعيف عنهما لا لعينهما ، كما يصان الصبي عن شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر ، وكما
 يصان حديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه ، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم .
 (الثاني) المنطق ، وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان
 في علم الكلام

(الثالث) الإلهيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل في
 الكلام أيضاً . والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب بعضها
 كفر وبعضها بدعة . وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين ،
 وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة

(الرابع) الطبيعيات ، وبعضها مخالف للشرع والدين الحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد

في أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ، إلا أن الطبيب ينظر في بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك . ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج اليه ، وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة اليها . فإذا الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخیلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بمحدث البدع ، كما حدثت حاجة الانسان إلى استئجار البذرقة في طريق الحج بمحدث ظلم العرب وقطعهم الطريق ، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ، فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر الى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضى الله عنهم ..

فليعلم المتكلم حدّه من الدين ، وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج ، فإذا تجرّد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم اذا تجرّد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ، ولم يشغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي يشاركه فيها سائر العوام ، وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا اليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومائعا عنه ، وإنما الوصول اليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

فان قلت : فقد رددت حدّ المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشوش المبتدعة ، كما أن حدّ البذرقة حراسة أقنشة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حدّ الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف السلطان شرّ بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان ربتان نازلتان بالاضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون ، وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالاضافة إلى علم الدين ؟

فاعلم أن من عرف الحق بالرجال ، حار في متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين

الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقد أجمع الذين عرّضت بذكرهم على تقديمهم ، وأهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ، ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه ، بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها . وما فضل أبو بكر^(١) رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ولكن بشيء وقر في صدره ، كما شهد له سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . فليكن حرصك في طلب ذلك السرّ ، فهو الجواهر النفيس والدرّ المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد ، إلا بضعة عشر رجلا . ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس وضعها في عنقه . إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة . ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقليل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ؛ أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ؟ فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره ؟ وهو الذي سد باب الكلام والجدل ، وضرب ضيقا بالدرة لما أورد عليه سؤالا في تعارض آيتين في كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره .

وأما قولك : إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما يُنال به الفضل عند الله شيء ، وما يُنال به الشهرة عند الناس شيء آخر ، فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة ، وكان فضله بالسر الذي وقر في قلبه . وكان شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة ، وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته ؛ ويقصده التقرب إلى الله عز وجل في ولايته ، وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن في سره . فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سرّ لا يطلع عليه أحد . فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ،

(١) حديث ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام - الحديث : الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعا

وقد اتقسموا : فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وقتواه وذبه عن سنة نبيه ، ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى ، وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ، ولا رادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فإن كل علم عمل ، فانه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علماً ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثاباً على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضياً عند الله سبحانه ومثاباً ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة ، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلاً وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة ، فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً . فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله ، أو عمال الله تعالى ، أو في حزيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما ؛ فهذا أم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

على أنا سنقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين اتجلاوا مذاهبهم ظاهراً وباطناً من أشد خصمائهم يوم القيامة ، فانهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ؛ وقد شوهدهم من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كما سيأتي بيانه في باب علامات علماء الآخرة ، فانهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه ، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ماصرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى ، والصوارف والدواعي متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعناً فيهم ، بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم متحلاً بمذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم .

فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق ، أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب ، خمسة : الشافعي ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عبداً ، وزاهداً ، وعالماً بعلم الآخرة ، وفقياً في مصالح الخلق في الدنيا ، ومريداً بفقه وجه الله تعالى . فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة ، وهي التشهير والمبالغة

في تفاريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لاتصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح
للدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قلّ صلاحها للدنيا ، شمروا لها وادّعوا بها مشابهة أولئك
الأنمة ، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين

فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع ، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة :

أما الامام الشافعي رحمه الله تعالى فیدل على أنه كان عابدا ماروی أنه كان يقسم الليل ثلاثة
أجزاء : ثلثا للعلم ، وثلثا للعبادة ، وثلثا للنوم . قال الربيع : كان الشافعي رحمه الله يحتم القرآن في
رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطي أحد أصحابه يحتم القرآن في رمضان
في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرايسی : بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحو من
ثلث الليل فأرأيت يزيد علي خمسين آية ، فاذا أكثر فمائة آية ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل
الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة
لنفسه وللمؤمنين ؛ وكأنا جمع له الرجاء والخوف معا . فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين
آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها . وقال الشافعي رحمه الله : ما شبع منذ ست عشرة
سنة ، لأن الشعب يثقل البدن ، ويقسى القلب ، ويزيل الفطنة ، ويحلب النوم ، ويضعف صاحبه
عن العبادة . فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشعب ، ثم في جدّه في العبادة إذ طرح الشعب
لأجلها ، ورأس التبعّد لتقليل الطعام . وقال الشافعي رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى لأصادق ولا
كاذبا قط . فانظر إلى حرمة وتوقيره لله تعالى ، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه

وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت ، ف قيل له : ألا تجيب رحمك الله ! فقال :
حتى أدري الفضل في سكوتي أوفي جوابي . فانظر في مراقبته للسان مع أنه أشدّ الأعضاء
تسلطا على الفقهاء ، وأعصاها عن الضبط والقهر . وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا
لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير : خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما
من سوق القناديل فتبعناه فاذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال :
نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ،
وإن السفیه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ، ولو ردّت بكلمة السفیه
لسعد رادها كما شقي بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه : كتب حكيم إلى حكيم : قد

أوتيت عامسا فلا تدنس عامك بظامة الذنوب فتبقى في الظامة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم وأما زهده رضى الله عنه فقد قال الشافعى رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدى : خرج الشافعى رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه ، فابرح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحملى مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوه الشافعى رحمه الله أشهر من أن تحكى ، ورأس الزهد السخاء ، لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارقه ، فلا يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه ، وهو معنى الزهد .

وبدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة ما روى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا في الرقائق فغشى على الشافعى ، فقيل له : قد مات ، فقال : إن مات فقد مات أفضل زمانه . وما روى عبد الله بن محمد البلوى قال : كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتذاكر المباد والزهاد ، فقال لى عمر : ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن ليلى إلى الصفا ، وكان الحارث تلميذا لصالح المرى فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية : (هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْهَرُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فرأيت الشافعى رحمه الله وقد تغير لونه ، واقشعر جلده ، واضطرب اضطرابا شديدا ، وخر مغشيا عليه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهى هب لى جودك وجلانى بسترى ، واعف عن تقصيرى بكرم وجهك ! قال ثم مشى وانصرفنا ، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوصا للصلاة إذ مر بى رجل فقال لى : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة . فالتفت فاذا أنا برجل يتبعه جماعة فأسرعت فى وضوئى وجعلت أقفو أثره ، فالتفت إلى فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم تعلمنى مما علمك الله شيئا . فقال لى : اعلم أن من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد فى الدنيا قررت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيدك ؟ قلت نعم . قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف واثمر ، ونهى عن المنكر واتهى ، وحافظ

على حدود الله تعالى . ألا أزيدك ؟ قلت : بلى . فقال : كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا ، واصلق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين . ثم مضى ، فسألت من هذا ؟ فقالوا : هو الشافعي . فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ، ثم إلى وعظه ، كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ؛ ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل ، فانه (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والاجارة وسائر كتب الفقه ؛ بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار ؛ إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما .

وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم الماثورة عنه : روى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ، وفي أي ثواب ترغب ، ومن أي عقاب ترهب ، وأي عافية تشكر ، وأي بلاء تذكر ، فانك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك . فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب . وقال الشافعي رضي الله عنه : من لم يضمن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فاذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عز وجل . وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا ، وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع ، والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه

. وقال للشافعي يوما : أيها أفضل : الصبر ، أو المحنة ، أو التمكن ؟ فقال الشافعي رحمه الله : التمكن درجة الأنبياء ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة ، فاذا امتحن صبر ، وإذا صبرمكن ، ألا تري أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكّنه وآتاه ملكا ؟ والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكّن ، قال الله تعالى : (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) الآية ، فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تهجره في أسرار القرآن ، وإطلاعه على مقامات

السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة
وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق في علم فعله وتعرض
لسائر العلوم فنظر فيما فاتته ، فعند ذلك يكون عالما ، فانه قيل لجالينوس : إنك تأمر للداء الواحد
بالأدوية الكثيرة المجمعة ، فقال : إنما المقصود منها واحد ، وإنما يجعل معه غيره لتسكن
حدته لأن الأفراد قاتل . فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى
وعلوم الآخرة .

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى ، فيدل عليه ما روى عنه انه قال : وددت أن
الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شيء منه . فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم
له ، وكيف كان منزّه القلب عن الالتفات إليه ، مجرد النية فيه لوجه الله تعالى ! وقال الشافعي
رضي الله عنه : ماناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطيء . وقال : ما كملت أحدا قط إلا أحببت
أن يوفق ويسدّد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كملت أحدا قط وأنا
أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه . وقال : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها
مني إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته .
فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة . فانظر كيف تابعه الناس من
جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا ! ولهذا قال أبو ثور
رحمه الله : ما رأيت ولا رأي الرءاون مثل الشافعي رحمه الله تعالى .

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي
رحمه الله تعالى . فانظر إلى إنصاف الداعي ، وإلى درجة المدعو له ، وقس به الأقران والأمثال
من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء
بهؤلاء . ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال
أحمد : يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدين ، وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من
خلف ؟ وكان أحمد رحمه الله يقول : مامس أحد بيد محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة .
وقال يحيى بن سعيد القطان : ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله
عز وجل عليه من العلم ، ووقفه للسداد فيه .

ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله ، فإن ذلك خارج عن الحصر . وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسامين .

وأما الامام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الخصال الخمس ، فإنه قيل له : مات قول يمالك في طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه . وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً ، حتى كان إذا أراد أن يحدث تواضعاً وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث . ف قيل له في ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية . وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى .

وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : « الجدل في الدين ليس بشيء » . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله : إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري . ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري . ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ، وما أحد أمن عليّ من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المسكوك ثم دسّ عليه من يسأله ، فروى على ملأ من الناس : « ليس على مسكوكه طلاق » فضر به بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف .

وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال لا ولكن أحدثك : سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره . وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها داراً ، فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخص قال لمالك رحمه الله : ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقترعوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« اِخْتِلَافُ أُمِّي رَحْمَةً »^(١) : وأما الخروج معك فلا سبيل اليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :^(٢) « الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » وقال عليه الصلاة والسلام :^(٣) « الْمَدِينَةُ تَنْفِي خَبَثَهَا كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها . يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعتني إلى ، فلا أؤثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لا تتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا ، وليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه . ولقد كان سلمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان ويقال مصر مارأيت أحسن منه ، فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه ! فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت دع نفسك منها دابة تركبها ، فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة . فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة ، وإلى توقيره لتربة المدينة ويدل على إرادته بالعلم وجهه الله تعالى واستحقاقه للدنيا ما روى عنه أنه قال : دخلت على هرون الرشيد فقال لي : يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال فقلت : أعز الله مولانا الأمير : إن هذا العلم منكم خرج ، فإن أتم أعزتموه عز ، وإن أتم أذلتموه ذل ، والعلم يؤتى ولا يأتى . فقال صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى لمقد كان أيضا عابدا ، زاهدا ، عارفا بالله تعالى ، خائفا منه ، مريدا وجهه الله تعالى بعلمه

فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحجى الليل كله . وروى أنه كان يحجى نصف الليل فر يوما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشى ، فقال لآخر : هذا هو الذي يحجى الليل

(١) حديث اختلاف أمتي رحمة : ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في المدخل من حديث

ابن عباس بلفظ اختلاف أصحابي لكم رحمة ، وإسناده ضعيف

(٢) حديث المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون : متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير

(٣) حديث المدينة تنفي خبثها - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله ؛ وقال أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته

وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى . فصر به عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب . قال الحكم بن هشام الثقفي : حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة ، وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختر عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها ! وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم ، قال : فما رضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذي توقع أن يوتي بالمال فيه صلى الصبح ثم تنشي بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أي هذه عادته ، فقال ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته ؛ وقال لابنه : إذامت ودفتمونى فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له : خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمة الله على أيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لأصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فما أصلح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء .

وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفة بالله عز وجل ، فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا . وقد قال ابن جريج : قد بلغني عن كوفيكم هذا النعمان ابن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي : كان أبو حنيفة طويلا الصمت دائم الفكر ، قليل المحادثة للناس . فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطني ، والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله . فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة

وأما الامام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ، وسفيان أقل أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر . وجميع هذا الكتاب

مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما ، فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن في سير هؤلاء الأئمة الثلاثة . وتأمل أن هذه الأحوال والأفعال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه ، من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان ، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ؟ وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا في دعواهم أم لا ؟

الباب الثالث

فما يعده العامة من العلوم الممودة وليس منها . وفيه بيان الوجه الذي قد يكون بين بعض العلوم المذمومة ، وبين تعديل أسامي العلوم ودوامها والعام والتوحيد والتذكير والحكمة ، وبين النادر الحدود من العلوم السريعة والتندر المذموم منها

بيان علة ذم العلم المذموم

لعلك تتول : العلم هو معرفة الشيء على ماهو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذهوما ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

الأول - أن يكون مؤديا إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات ، وهو حق ، إذ شهد القرءان له ، وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين . وقد «سُحر»^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك ، وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر « وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسائية في مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ، ويرصد

﴿ الباب الثالث ﴾

(١) حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث عائشة

به وقت مخصوص من المطالع ، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك ، بحكم إجراء الله تعالى العادة ، أحوال غريبة في الشخص المسحور . ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ، ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق ، والوسيلة إلى الشرّ شرّ ، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً ، بل من اتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حرير إذا سأل الظالم عن محله لم يحز تنبيهه عليه ، بل وجب الكذب فيه ، وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشئ على ماهو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر

الثاني - أن يكون مضرّاً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم ، فانه في نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسمان : قسم حسابي ، وقد نطق القرءان بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) وقال عز وجل : (وَالْقَمَرَ قَدَرًا مِّنَ مَّوَاقِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) . والثاني الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب ، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ماسيحدث من المرض ، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعاداته في خلقه ، ولكن قد ذمه الشرع ، قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي ثَلَاثًا : حَيْفُ الْأُمَّةِ ، وَالْإِيمَانُ بِالنُّجُومِ ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا . وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه مضر بأكثر الخلق ، فانه إذا أُلقي اليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة ، لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها في القلوب ، فيبقى القلب ملتفتاً إليها ، ويرى الخير والشرّ محذورا أو مرجواً من جهتها ، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب . فان الضعيف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى . ومثال نظر الضعيف إلى

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا - الحديث : رواه الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث أخاف على أمتي بعدى ثلاثاً حيف الأئمة - الحديث : ابن عبد البر من حديث أبي عبيد بن جراح باسناد ضعيف

حصول ضوء الشمس عتيب طلوع الشمس مثال النحلة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصابع، ثم منها إلى اليد، ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة، فأكثر نظر الخالق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب. فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم. و (ثانيها) أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا، فالحكم به حكم بجمل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم، فلقد كان ذلك معجزة لأدريس عليه السلام فيما يحكى، وقد اندرس وانحى ذلك العلم وانحى، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب، عتيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها، فان اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر خطأ، ويكون ذلك كتخمين الانسان في أن السماء تنطر اليوم مهما رأى النيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب النيم، وربما يكون بخلافه، ومجرد النيم ليس كافيا في مجىء المطر، وبقية الأسباب لا تدرك، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتمادا على ما ألفه من العادة في الرياح، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ، ولهذا العلة يمنع القوى عن النجوم أيضا. و (ثالثها) أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا ينفع، وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الانسان في غير فائدة، وذلك غاية الخسرات، فقد « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال بماذا؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب، فقال: «لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ لِيَنْفَعْ وَجْهٌ لِيَضُرُّ». وقال صلى الله عليه وسلم^(١) «إِنَّمَا الْعِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ». فإذا الخوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر، وخوض في جهالة من غير فائدة، فان ما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن، بخلاف الطب فان الحاجة ماسة اليه، وأكثر أدلته بما يطلع عليه،

(١) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا فقالوا رجل علامة - الحديث:

ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعته وفي آخر الحديث «إِنَّمَا الْعِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ» الى آخره، وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو،

وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطريه
السبب الثالث - الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذهب في حقه
كتعلم دقيق العلوم قبل جليها ، وخفيها قبل جليها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ تطلع
الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوها بها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء
والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها ، وردم إلى مناطق به الشرع ، ففي ذلك مقنع
للموفق ، فكم من شخص خاض في العلوم واستضر بها ، ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في
الدين مما صار إليه . ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى
اللطيفة بالصبي الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكى أن بعض الناس
شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء
الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوماً وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف
العظيم وتنفس عليها عيشها ؛ وأخرجت أموالها وفرقتها ؛ وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولا
تشرب حتى انقضت المدة ؛ فلم تمت ، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له لم تمت ؛ فقال الطبيب : قد
عامت ذلك فجاءها الآن فأنها تلد . فقال : كيف ذاك ؟ قال رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم
رحمها فعملت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت ؛ فخوقها بذلك حتى هزلت وزال المانع من
الولادة . فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم . ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه
وسلم : ^(١) « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » . فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بجائناً عن علوم
ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم ، واقتصر على اتباع السنة ،
فالسلامة في الاتباع ، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تكثر اللجج برأيك
ومعقولك ، ودليلك وبرهانك ، وزعمك أني أبحت عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فأى
ضرر في التفكير في العلم ، فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكم من شيء تطلع عليه فيضرك
اطلاعت عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته

واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعد لها من لا يعرفها ،
فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية ، فلا تتحكم على سنتهم بمعقولك

(١) حديث نعوذ بالله من علم لا ينفع : ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن وهو عند ابن ماجه بلفظ
نعوذوا . وقد تقدم .

فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضى عقله أن يطلبه حتى ينبيه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطل الكف من الجانب الآخر من البدن ، فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ، فهكذا الأمر في طريق الآخرة ، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه . وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائباً غاب عن أهل الصنعة عامها ، حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد . فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب وتقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله ، أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير . وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرفة إليها ، وإنما كانت التجربة تنطرق إليها لو رجع الينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى ، وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطعم فيه ، فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، ويفهمك موارد إشاراته ، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ، ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا ، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيًّا » ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الإضرار . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم ^(٢) « قَلِيلٌ مِنَ التَّوْفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ » وقال عيسى عليه السلام : « ما أكثر الشجر وليس كلها بشعر ، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع ! »

بيان ما بدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول ، وهي خمسة

- (١) حديث إن من العلم جهلاً - الحديث : أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل
- (٢) حديث قليل من التوفيق خير من كثير من العلم - لم أحده أصلاً وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي السرداء وقال : العقل ، بدل العلم ، ولم يخرج له ولده في مسنده

الفاظ : الفقه، و العلم، والتوحيد، والتذكير والحكمة، فهذه أسام محودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسام عليهم .

اللفظ الأول : الفقه - فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه . ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب . ويدل ذلك عليه قوله عز وجل : (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) . وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجربين له . وقال تعالى : (لَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) وأراد به معاني الايمان دون الفتاوى . ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً، قال تعالى : (لَّا تُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ) الآية، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه . فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « عُلَمَاءُ مُحْكَمَاءُ فَقَهَاءُ » للذين وفدوا عليه . وسئل سعد بن ابراهيم الزهرى رحمه الله : أى أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم لله تعالى، فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه، والتقوى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأقضية . وقال صلى الله عليه وسلم : ^(٢) « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ كُلِّ الْفَقِيهِ ؟ قَالُوا بلى، قَالَ : مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَمْ يَدَعْ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه

(١) حديث علماء حكماء فقهاء : أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن

الحارث باسناد ضعيف

(٢) حديث ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه - الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وأبو بكر بن السنن

وابن عبد البر من حديث علي وقال ابن عبد البر أكثرهم يوقفونه عن علي

وسلم: ^(١) (لأن أقعد مع قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ) قال فالتفت إلى زيد الرقاشي وزيد النُميري وقال: لم تكن مجالسُ الذكر مثلَ مجالسكم هذه يُقَصُّ أحدُكم وعظه على أصحابه ويسرُّ الحديث سرداً، إنما كنا نقعدُ فنذكر الإيمانَ، ونتدبرُ القرآنَ ونتفقه في الدين، ونعدُّ نعم الله علينا تفقها، فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها. قال صلى الله عليه وسلم: ^(٢) «لَا يَفْقَهُ الْعَبْدُ كُلَّ الْفَقِيهِ حَتَّى يَمُتَ النَّاسُ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَحَتَّى يَرَى لِلْقُرْآنِ وَجُوهًا كَثِيرَةً» وروى أيضاً موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله (ثُمَّ يُقْبَلُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونُ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا) وقد سأل فرقد السنجي الحسن عن الشيء فأجابه فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن رحمه الله: تكلمتُك أمك فريد، وهل رأيت فقيهاً بعينك! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكافٍ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى. ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناوياً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر. فبان من هذا التخصيص تليس بعث الناس على التجرد له والأعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب، ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع، فإن علم الباطن غامض، والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع.

اللفظ الثاني: العلم — وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله: لقد مات تسعة أعشار العلم، فعرّفه بالألف واللام، ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وتعالى. وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم. ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم. وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص، ولكن ماورد

(١) حديث أنس لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس الحديث: أبو داود بإسناد حسن

(٢) حديث لا يفقه العبد كل الفقه حتى يموت الناس في ذات الله — الحديث: ابن عبد البر من حديث شداد

ابن أوس وقل لا يصح مرفوعاً

من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافة ، فيعد بذلك من فحول العلماء ، مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً مهلكاً مخلق كثير من أهل الطلب للعلم .

اللفظ الثالث : التوحيد — وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشنق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات ، وتأليف الازمات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمى المتكلمون ، العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول ، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة ، فأما ما يشتمل عليه القراءان من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع ، فلقد كان ذلك معلوماً للكل . وكان العلم بالقراءان هو العلم كله ؛ وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله . فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى . وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قيل له في مرضه : أنطاب لك طيبيا ؟ فقال : الطيب أمرضني . وقال آخر لما مرض ف قيل له : ماذا قال لك الطيب في مرضك ؟ فقال : قال لي : إني فعال لما أريد . وسيأتي في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك . والتوحيد : جوهر نفيس ، وله قشران : أحدهما أبعد عن اللب من الآخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصناعة الحراسة للقشر ، وأهملوا اللب بالكلية . فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله . وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذي صرح به النصاري ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره . والقشر الثاني : أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده ، وكذلك التصديق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث وهو الباب : أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبد

عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) وقال صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ إِلَهٍ عُبدَ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْهَوَى »^(١) . وعلى التحقيق : من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه ، فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهواء . ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات اليهم ، فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ! فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام ، وهو مقام الصديقين . فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه ، وكيف اتخذوا هذا معتصما في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي ؟ وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا ، وهو أول كذب يفتح الله به كل يوم إن لم يكن وجهه قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص ، فانه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة ، وما صرفه إلا عن سائر الجهات ؛ والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجها إليه ، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار ؛ وإن أراد به وجه القلب ، وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله ، وقلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ، ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية إليها ، فمتى وجهه وجهه للذي فطر السموات والأرض ؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالوحيد هو الذي لا يرى إلا الواحد ، ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو امتثال قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُ يُمْ ذَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) وليس المراد به القول باللسان فانما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى ، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه

اللفظ الرابع : الذكر والتذكير - فقد قال الله تعالى : (وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيْمٌ تَتَقَرُّ الْمُؤْمِنِينَ) . وقد ورد في الشفاء على مجالس الذكر أخبار كثيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَرَرْتُمْ

(١) حديث أبغض إله عبد عند الله في الأرض هو الهوى : الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف

(٢) حديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا - الحديث : الترمذي من حديث أنس وحسنه

بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَأَرْتَعُوا، قِيلَ: وَمَا رِیَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ مَجَالِسُ الذِّكْرِ « وفي الحديث ^(١) » إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَائِكَةٌ سَيَّاحِينَ فِي الدُّنْيَا سِوَى مَلَائِكَةِ الْخَلْقِ إِذَا رَأَوْا مَجَالِسَ الذِّكْرِ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَأَهْلُمُوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ فَيَأْتُونَهُمْ وَيُحْفُونَ بِهِمْ وَيَسْتَمِعُونَ، أَلَا فَادْكُرُوا اللَّهَ وَذَكِّرُوا أَنْفُسَكُمْ » فنقل ذلك إلى مآثرى أكثر الوعاظ في هذا الزمان، يواظبون عليه، وهو القصص والأشعار والسطح والطامات، أما القصص فهي بدعة؛ وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصص، وقالوا: ^(٢) لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصص.

وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال: ما أخرجني إلا القاص ولولاه لما خرجت. وقال ضمرة: قلت لسفيان الثوري: نستقبل القاص بوجوهنا؟ فقال: ولوا البدع ظهوركم. وقال ابن عون: دخلت على ابن سيرين فقال: ما كان اليوم من خبر؟ فقلت: نهى الأمير القصاص أن يقصوا، فقال: وفق للصواب. ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول: حدثنا الأعمش، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه، فقال القاص: يا شيخ ألا تستحي! فقال: لم؟ أنا في سنة وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدثتك! وقال أحمد: أكثر الناس كذبا القصاص والسؤال.

وأخرج علي رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرج، إذ كان يتكلم في علم الآخرة، والتفكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكر بآلاء الله ونعمائه، وتقصير العبد في شكره، ويعترف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرفها ونكت عهدها، وخطر الآخرة وأهوالها. فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذي روى الحث عليه في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال: ^(٣) « حُضُورُ مَجْلِسٍ ذِكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسٍ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ عِيَادَةِ

(١) حدث إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق - الحديث: منفق عليه من حديث أبي هريرة

دون قوله في الهواء، ولا ترمذى سياحين في الأرض، وقل مسلم سيرة

(٢) حديث لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابن ماجه من حديث عمر باسناد حسن

(٣) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة: تقدم في الباب الاول

أَلْفٍ مَرِيضٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسٍ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ شُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ . فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : وَهَلْ تَنْفَعُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ إِلَّا بِالْعِلْمِ ؟ « وَقَالَ عطاء رحمه الله : مجلسٌ ذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللّهُ . فقد آتخذ المذخر فون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم ، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص ، وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها ، فإن من القصص ما ينفع سماعه ، ومنها ما يضر وإن كان صدقاً . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب ، والنافع بالضرار ، فمن هذا نهى عنه . ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق !

فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم ، وكان القاص صادقاً صحيح الرواية ، فلست أرى به بأساً . فليحذر الكذب وحكايات أحوال تولى إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطي عليها ، فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ويعمد لنفسه عذراً فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا بصدد المعاصي ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري . فبعد الاحتراز عن هذين المذورين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة ، وإلى ما يشتمل عليه القرآن ، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزغات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع في الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع ؟ قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع : هذا الذي يبغضك إلى ، لا قضيت حاجتك أبداً حتى تتوب ! وقد كان جاءه في حاجة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات ^(١) : «إِيَّاكَ وَالسَّجْعَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ»

(١) حديث إياك والسجع يا ابن رواحة لم أجده هكذا ولأحمد وأبي يعلى وابن السني وأبي نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة بأسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ، ولابن جبان : واجتنب السجع ، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس

فكان السجع المحذور المتكلف مازاد على كلمتين ، ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَسَجَّ كَسَجِّعِ الْأَعْرَابِ ! »

وأما الأشعار فتكثرها في المواعظ مذموم ، قال الله تعالى : (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) وقال تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف بالعشق وجمال المعشوق ، وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها ، فتشتمل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم : ^(٢) « إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمَةً » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه كما سيأتى تحقيق ذلك في كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يتكلم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين . وحضر جماعة باب دار ابن سالم فقبل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ماهؤلاء أصحابي إنما هم أصحاب المجلس إن أصحابي هم الخواص .

وأما الشطح فنحن به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

أحدهما - دعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وبما حكى عن أبي

(١) حديث أسجع كسجع الأعراب : مسلم من حديث المغيرة

(٢) حديث إن من الشعر لحكمة : البخارى من حديث أبي بن كعب

يزيد البسطامي أنه قال : سبحانى سبحانى ؛ وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ؛ حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس . وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله ، فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فقلعه كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، فانه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

الصف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلّة ممارسته للعلم وعدم تعامه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَا يَفْقَهُونَهُ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « كَلَّمُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَا يَنْكُرُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يَكْذِبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها

(١) حديث ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم : الغبلى فى الضعفاء وابن السنى وأبو

نعيم فى الرىاء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ولمسلم فى مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود

(٢) حديث كلّموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون - الحديث : البخارى موقوفا على علي ورفعه أبو منصور

الدبلى فى مستند الفردوس من طريق أبى نعيم

فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء . وفي لفظ آخر : من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقا ، وإن لها أهلا ، فأعط كل ذي حق حقه .

وأما الطامات ، فدخلها ما ذكرناه في الشطح ، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة : كدأب الباطنية في التأويلات ، فهذا أيضا حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى ؛ وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهرى المصنف في الرد على الباطنية

ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى : (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) : إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون ، وهو الطاغى على كل إنسان ، وفي قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ) أى كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ، فينبغى أن يليقه ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : ^(١) « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً » أراد به الاستغفار في الأسحار . وأمثال ذلك ، حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء . وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتأويل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، وكأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه . وكذا حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان

(١) حديث تسحروا فإن في السحور بركة : منفق عليه من حديث أنس

صلى الله عليه وسلم: ^(١) « يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ، وَيَقُولُ: تَسَحَّرُوا » ^(٢) وَ« هَامُوا إِلَى الْغَدَاءِ الْمُبَارَكِ ». فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الاحساس . فكل ذلك حرام وضلالة ، وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستخرج شهادة القراءان اليه ، ويحمله عليه من غير أن يشهد لتزييله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية .

ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القراءان بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ، ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه ^(٤) « اللَّهُمَّ فَقهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق الى الخلق ، يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع : كمن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك ظلم وضلال ، ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم ^(٥) « مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »

(١) حديث تناول الطعام في السحور : البخارى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا

(٢) حديث هلموا إلى الغداء المبارك : أبوداود والنسائي وابن حبان من حديث العرياض بن سارية وضعفه ابن القطان

(٣) حديث من فسر القراءان برأيه فليتبوأ مقعده من النار : الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد وعند النسائي في الكبرى

(٤) حديث اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل - قاله لابن عباس : البخارى من حديث ابن عباس دون قوله : وعلمه التأويل ، وهو بهذه الريادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٥) حديث من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعلى وأنس

النَّارِ» بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبطلّة للثقة بالألفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرءان بالكلية . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودّة إلى المذمومة . فكل ذلك من تليس علماء سوء بتبديل الأسامي ، فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات الى ما عرف في العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيماً ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ

اللفظ الخامس : وهو الحكمة - فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم ، حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق . والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى : (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « كَلِمَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ يَتَعَلَّمُهَا الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا تقل ، وقس به من بقية الألفاظ ، واحترز عن الاغترار بتليسات علماء سوء ، فإن بشرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا ^(٢) لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبي وقال : « اللَّهُمَّ غَفراً » حتى كرروا عليه فقال : « هُمْ عُلَمَاءُ السُّوءِ » فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس ، واليك الخيرة في أن تنظر لنفسك ، فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتنشبه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ » فقيل : ومن الغرباء؟ قال الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَهُ النَّاسُ مِنْ سُنتِي . وَالَّذِينَ يُحْيُونَ مَا أَمَاتُوهُ مِنْ سُنتِي

(١) حديث كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا : تقدم بنحوه

(٢) حديث لما سئل عن شر الخلق أبي وقال اللهم غفراً - الحديث : الدارمي بنحوه من رواية الأحوص

ابن حكيم عن أبيه مرسل وهو ضعيف ورواه البزار في مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف .

(٣) حديث بدأ الإسلام غريباً - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً وهو بهامة عند الترمذي من

حديث عمرو بن عوف وحسنه

وفي خبر آخر (١) « هُمُ الْمُتَمَسِّكُونَ بِمَا أَتَتْهُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » وفي حديث آخر (٢) « الْغُرَبَاءُ نَاسٌ قَلِيلٌ صَالِحُونَ بَيْنَ نَاسٍ كَثِيرٍ مَنْ يُبْغِضُهُمْ فِي الْخَلْقِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُحِبُّهُمْ ». وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يفتت ذاكرها. ولذلك قال الشورى رحمه الله: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه، والاستقصاء فيه، وهو مثل أحوال البدن، فإن منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإن التبذير لا يحمد فيه وهو بذل، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمد فيها وإن كان من جنس الشجاعة، فكذلك العلم

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا، إذ فيه ضرر يغلب نفعه: كعلم السحر والطلسمات والنجوم، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً، وصرف العمر الذي هو أنفاس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفيس مذمومة، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فانه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم، بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت

(١) حديث هم المتمسكون بما أتتهم عليه اليوم يقوله في وصف الغرباء: لم أر له أصلاً

(٢) حديث الغرباء ناس قليلون صالحون: أحمد من حديث عبد الله بن عمرو

تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب . ويعين على التنبيه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة كما سيأتى علامتهم ، هذا في أول الأمر . ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة ، وتصفية القلب وتفرينه عن علائق الدنيا ، والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ، ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها

وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص ، فهي العلوم التي أوردناها في فروع الكفايات ، فإن في كل علم منها اقتصارا وهو الأقل ، واقتصادا وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر . فكن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة : من تعلم الصلاة ، والطهارة ، والصوم ، وإنما الأهم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم ، إذ لا ينفع بشر عن الصفات المذمومة : مثل الحرص والحسد ، والرياء ، والكبر ، والعجب وأخواتها ؛ وجميع ذلك مهلكات ، وإهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدمامل ، والتهاون باخراج المادة بالفصد والإسهال . وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطريقة من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر : بإفساد منابتها ، وقلع مغارسها من القلب . وإنما فزع الأكترون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح ، واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد ، وتتضاعف به الأمراض

فإن كنت مريداً للآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدي ، فاشتغل بعلم الملل الباطنة وعلاجها ، على ما فصلناه في ربيع المهلكات . ثم ينجر بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربيع المنجيات لا محالة . فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا تقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية ، لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها ، فإن مهلك نفسه فيما به

صلاح غيره سفيه . فما أشد حماقة من دخلت الأفاعى والمقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يئنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والمقارب إذا همت به !

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ، وقدرت على ترك ظاهر الاثم وباطنه ، وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك ، وما أبسد ذلك منك ، فاشتغل بفروض الكفايات ، وراع التدرج فيها : فابتدىء بكتاب الله تعالى ، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن : من علم النسخ والمنسوخ ، والمفصول والموصول ، والمحكم والمتشابه ، وكذلك فى السنة . ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت . ولا تستغرق عمرك فى فن واحد منها طلبا للاستقصاء ، فإن العلم كثير ، والعمر قصير . وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ، فاقصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ، ودع التعمق فيه . واقصر من النجوى على ما يتعلق بالكتاب والسنة ، فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء .

ونحن نشير اليها فى الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها .

فالاعتصار فى التفسير ما يبلغ ضعف القرآن فى المقدار ، كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوجيز ، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه ، وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه ، فلا مرد له الى انتهاء العمر .

وأما الحديث فالاعتصار فيه تحصيل ما فى الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث .

وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفى فيه بما تحمّله عنك من قبلك ، والى أن تعمل على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ، ولكن تحصيله تحصيلًا تقدر منه على طلب ما تحتاج اليه عند الحاجة . وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف اليهما ما خرج عنهما مما ورد فى المسندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوى والصحيح

والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم .
وأما الفقه فالإقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزني رحمه الله ، وهو الذي رتبناه في خلاصة
المختصر . والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله ، وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب ،
والاستقصاء ما أوردناه في البسيط ، الى ما وراء ذلك من المطولات
وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لاغير ،
وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقها . ومقصود حفظ السنة تحصيل
رتبة الإقتصار منه بمعتقد مختصر ، وهو القدر الذي أوردناه في كتاب قواعد العقائد من جملة
هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة ، وهو الذي أوردناه في كتاب الاقتصاد
في الاعتقاد ، ويحتاج اليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي ،
وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم . وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً
يسيراً فقلما ينفع معه الكلام ، فانك إن أخمته لم يترك مذهبه ، وأحال بالقصور على نفسه ،
وقدّر أن عند غيره جواباً ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة . وأما العامي إذا
صُرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد اليه بمثله قبل أن يشتدّ التعصب للأهواء . فاذا اشتد
تعصبهم وقع اليأس منهم ، إذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس ، وهو من آفات العلماء
السوء ، فانهم يبالغون في التعصب للحق ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ،
فتنبعث منهم الدعوي بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ،
ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا اليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في
الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه . ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع
ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآتهم
وسموه ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة
في النفوس

وأما الخلافات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة ، وأبدع فيها من التحريرات
والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف ، فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها

اجتناب السم القاتل، فإنها الداء المضال، وهو الذى رد الفقهاء كلهم الى طلب المنافسة والمباهاة على ماسياتيك تفصيل غوائلها وآفاتنا. وهذا الكلام ربما يسمع من قائله، فيقال: الناس أعداء ما جهلوا. فلا تسنن ذلك، فعلى الخبير سقطت؛ فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا، وزاد فيه على الأوائل تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا، ثم ألهمه الله رشده وأطلعته على عيبه، فبهجره واشتغل بنفسه؛ فلا يغرنك قول من يقول: الفتوى عماد الشرع، ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف، فإن علل المذهب مذكورة فى المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة، وكانوا أعلم بعلم الفتاوى من غيرهم، بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه، فإن الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر. فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه، ويتعلل بأنه يطالب علل المذهب، وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب. فكن من شياطين الجن فى أمان، واحترز من شياطين الانس، فانهم أراخوا شياطين الجن من التعب فى الإغواء والإضلال

وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك فى العالم وحدك مع الله، وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيما يعينك مما بين يديك، ودع عنك ما سواه، والسلام وقد رأى بعضُ الشيوخ بعضَ العلماء فى المنام فقال له: ما خبر تلك العلوم التى كنت تجادل فيها وتناظر عليها؟ فبسط يده ونفخ فيها، وقال: طاحت كلها هباء منثورا، وما انتفعت إلا بركتين خلصتا لى فى جوف الليل! وفى الحديث^(١) «مَاضِلٌ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ» ثم قرأ (مَاضِرْبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ). وفى الحديث فى معنى قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) الآية^(٢) هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى: (فَأَحْذَرُهُمْ). وقال بعض السلف: يكون فى آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل، ويفتح

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل: الترمذى وابن ماجه من حديث أبي أمامة، قال

الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فأحذرهم: متفق عليه من حديث عائشة

لهم باب الجدل . وفي بعض الأخبار^(١) « إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ أُلْهِمْتُمْ فِيهِ الْعَمَلَ وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يُلْهِمُونَ الْجَدَلَ » وفي الخبر المشهور^(٢) « أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْأَلَدُّ الْخِصْمُ » وفي الخبر^(٣) « مَا أَوْتِيَ قَوْمٌ الْمَنْطِقَ إِلَّا مُنِعُوا الْعَمَلَ » . والله أعلم

الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف

وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولّاها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى ، فقهاء في أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأفضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا ، في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنهه اجتهداهم ، كما نقل من سيرهم . فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أفوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطرروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم .

وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، وملازم صفو الدين ، ومواظب على سمع علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات

فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاء عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشربوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاية ، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاية ، وتعرفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلوات منهم ، فنههم من

(١) حديث إنكم في زمان أُلْهِمْتُمْ فِيهِ الْعَمَلَ وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يُلْهِمُونَ الْجَدَلَ : لم أجده

(٢) حديث أبغض الخلق إلى الله الألد الخضم : متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث ما أوتي قوم المنطق إلا منعوا العمل : لم أجده له أصلا

حرم ومنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله . وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأفضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام ، فأكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقليد أحكام المسامين ، إشفافاً على خلق الله ونصيحة لهم ، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم ، واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات ، وهم مستمررون عليه إلى الآن ، ولسناندرى ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار . فهذا هو الباعث على الكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات

بمشاورات الصحابة ومفازات السلف

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، هكذا

كان عادة الصحابة رضي الله عنهم في مشاوراتهم: كنتشاورهم في مسألة الجد والإخوة ، وحدّ شرب الخمر ، ووجوب الغرم على الامام إذا أخطأ ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفاً من عمر رضي الله عنه ، وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها ، وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد ابن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء ، رحمهم الله تعالى

ويطلعك على هذا التلييس ما ذكره ، وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ، ولكن له شروط وعلامات ثمان :

الأول — أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان . ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب ، ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول : غرضي أسترة عورة من يصلي عريانا ولا يجد ثوبا ، فإن ذلك ربما يتفق ، ووقوعه ممكن ، كما يزعم الفقيه أن وقوع النواذر التي عنها البحث في الخلاف ممكن ، والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأهمور هي فرض عين بالاتفاق . ومن توجه عليه ردّ ودیعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات الى الله تعالى عصي به ، فلا يكتفي في كون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب .

الثاني — أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة ، فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصي بفعله ، وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء ، فاشتغل بتعلم الحجامة وزعم أنه من فروض الكفايات ، ولو خلا البلد عنها لهلك الناس ، وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجاجين وفيهم غيبة ، فيقول : هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهمة لا قائم بها . فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يتخلو بلد من جملة الفروض المهمة ولا يلتفت الفقهاء إليها ، وأقربها الطب ، إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ، ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به . وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو من فروض الكفايات ، وربما يكون الناظر في مجلس مناظرته مشاهدا للحريير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ، وينظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط ، وإن وقعت قام بها

جماعة من الفقهاء ، ثم زعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات ، وقد روى أنس
رضي الله عنه أنه « قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ^(١) مَتَى يَتْرُكُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟
فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا ظَهَرَتِ الْمُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالْفَاحِشَةُ فِي شِرَارِكُمْ وَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ
فِي صِغَارِكُمْ وَالْفِقْهُ فِي أَرَادِلِكُمْ »

الثالث - أن يكون المناظر مجتهدا يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما ،
حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما يوافق رأى الشافعي وأفتى بما ظهر له ، كما
كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأئمة ، فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل
الدعر وإنما يفتي فيما يُسأل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجوز له
أن يتركه ، فأى فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ، وما يشكل عليه
يلزمه أن يقول لعل عند صاحب مذهبي جوابا عن هذا فاني لست مستقلا بالاجتهاد في أصل
الشرع ؟ ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه به ، فانه
ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها
قط ، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتا
الرابع - أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا ، فان الصحابة رضي الله
عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع ، أو ما يغلب وقوعه كالقرائض ، ولا نرى المناظرين
يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها ، بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع
مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر . وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو
هي من الزوايا وليست من الطبوليات ، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركه
المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الأخبار . أو لأنها ليست من الطبول فلا تطول فيها
الكلام ، والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول
الخامس - أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر

﴿ الباب الرابع ﴾

(١) حديث أنس قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ابن ماجه بإسناد حسن

والسلاطين . فان الخلوة أجمع للفهم ، وأخرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محققاً كان أو مبطلاً ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والجامع ليس لله ، وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه ، وربما يقترح عليه فلا يجيب ، وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام .

السادس - أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقا في طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر ، فانه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ، فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم ، حتى إن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونهته على الحق وهو في خطبته على ملائ من الناس ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضي الله عنه فأجابه فقال : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا ، فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى : لاتسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم ، وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل ، فقال : هو في الجنة ، وكان أمير الكوفة ، فقام ابن مسعود فقال أعده على الأمير فلعله لم يفهم ، فأعادوا عليه ، فأعاد الجواب ، فقال ابن مسعود : وأنا أقول : إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة ، فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق . ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق ، فان ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه ، وكيف ينجعل به ، وكيف يجتهد في مجادته بأقصى قدرته ، وكيف يذم من أخمه طول عمره ، ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق !

السابع - أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ، ومن إشكال إلى إشكال ، فهم كذا كانت مناظرات السلف ، ويُخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه ، كقوله : هذا لا يلزم مني ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك ، فان الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ، ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس

المستدل على أصل بعلة يظنها فيقال له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لي فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه ، فيصر المعترض ويقول : فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفت ما لا أذكرها إذ لا يلزم مني ذكرها ؛ ويقول المستدل : عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ، ويصر المعترض على أنه لا يلزمه ، ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ، ولا يعرف هذا المسكين أن قوله إني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزم مني ، كذب على الشرع ، فانه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصي الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها ، وإن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه ، فإن كان قويا رجع إليه ، وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم . فمضى قوله : لا يلزم مني ، أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشهي والرغبة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزم مني ، وإلا فهو لازم بالشرع ، فانه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق .

فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم : هل سمعت فيها ما يضاهي هذا الجنس ؟ وهل منع أحدهم من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس ، إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر ، وكانوا ينظرون فيه

الثامن — أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم ، والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم ، فيرغبون فيمن دونهم طمعا في ترويح الباطل عليهم

وراء هذه شروط دقيقة كثيرة ؛ ولكن في هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر الله ومن يناظر لعله

واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدوه ولا يزال يدعو به إلى هلاكه ، ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب أو مسام للمصيب في الأجر ، فهو ضحكة للشيطان ، وعبرة للمخلصين . ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التي نعددها ونذكر تفاصيلها . فنسأل الله حسن العون والتوفيق

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها

من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشديد عند الناس، وقصد المباهاة والمباراة واستمالة وجوه الناس، هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة: من الزنا، والقذف والقتل والسرقة، وكما أن الذي خيّر بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه، فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة، دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس، وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة. وهذه الأخلاق ستأتي أدلة مذمتها من الأخبار والآيات في ربيع المهلكات، ولكننا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المناظرة:

ففيها الحسد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) «أَلْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». ولا ينفك المناظر عن الحسد، فانه تارة يغلب وتارة يغلب، وتارة يحمده كلامه وأخرى يحمده كلام غيره؛ فإدام يبق في الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر، أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً، فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه، وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه. والحسد نار محرقة، فمن بلى به فهو في العذاب في الدنيا، وللعذاب الآخرة أشد وأعظم، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه؛ ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغاïرون كما تتغاïر التيوس في الزريبة ومنها التكبر والترفع على الناس، فقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب: أبو داود من حديث أبي هريرة، وقال البخاري

لا يصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن

(٢) حديث من تكبر وضعه الله - الحديث: الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال غريب من حديث

الثوري ولا بن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن

وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللَّهُ . وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى ^(١) « الْعِظْمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ » . ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال ، والترفع إلى فوق قدره ، حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتقاء والانخفاض ، والقرب من وسادة الصدر والبعد منها ، والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق . وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم ، ^(٢) وَدَأَنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْهُيَّ عَنِ الْإِذْلَالِ لِنَفْسِهِ « فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل ، وعن التكبر الممقوت عند الله بجز الدين ، تحريفاً للاسم ، وإضلالاً للخلق به ، كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما .

ومنها الحقد ، فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقَّوْدٍ » . وورد في ذم الحقد ما لا يخفى ، ولا نرى مناظراً يقدر على أن لا يضر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ، ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء ، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه ، وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ، ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر . وكيف ينفك عن هذا ، ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه ، واستحسان جميع أحواله في إirاده وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر ومنها الغيبة ، وقد شبهها الله بأكل الميتة ، ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة ، فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته . وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه ، فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه وتقصان فضله ، وهو الغيبة . فأما الكذب فبهتان ، وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه ، حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة .

(١) حديث الكبرياء ردائي والعظمة ازارى - الحديث : أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي

هريرة ، وهو عند مسلم بلفظ الكبرياء رداؤه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد

(٢) حديث نبى المؤمن عن إذلال نفسه : الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه

(٣) حديث المؤمن ليس بحقود : لم أقف له على أصل

ومنها تركية النفس ، قال الله تعالى : (فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) . وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه . ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة ، والتقدم بالفضل على الأقران . ولا يفتك في أثناء المناظرة عن قوله : لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور ، وأنا المتفنن في العلوم ، والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث ، وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف ، وتارة للحاجة إلى ترويح كلامه . ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا .

ومنها التجسس وتتبع عورات الناس ، وقد قال تعالى : (وَلَا تَجَسَّسُوا) . والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه ، حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ، ويستخرج بالسؤال مقابجه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخليجه إذا مست إليه حاجة ، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه ففساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ، ثم إذا أحس بأذى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكا ، ويستحسن ذلك منه ، ويعد من لطائف التسبب ، ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبججا بالسفاهة والاستهزاء ، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم .

ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارهم ، ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب المباهاة باظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ، ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر ، فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها ، فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرا تغير لونه واضطرب عليه فكره ، فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أو سباعا ضاريا ! فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء ، وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتسامح في السراء والضراء ، حتى قال الشافعي رضي الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل . فلا أدري كيف يدعى الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ، فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة ؟ هيهات هيهات ! وناهيك بالشر شرا أن يلزمك أخلاق المنافقين ، ويرثك عن أخلاق المؤمنين والمتقين

ومنها النفاق ، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه ، وهم مضطرون إليه ، فانهم يلقون

الخصوم ومحبيهم وأشياهم ولا يجدون بدا من التودد اليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور ، فانهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب . نعوذ بالله العظيم منه ! فقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِذَا تَعَلَّمَ النَّاسُ الْعِلْمَ وَتَرَكُوا الْعَمَلَ وَتَحَابُّوا بِاللُّسَنِ وَتَبَاغَضُوا بِالْقُلُوبِ وَتَقَاطَعُوا فِي الْأَرْحَامِ ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ » رواه الحسن ، وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة

ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على الماراة فيه ، حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده ، وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه ، حتى تصير الماراة فيه عادة طبيعية ، فلا يسمع كلاما إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه ، حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القراءان وألفاظ الشرع ، فيضرب البعض منها بالبعض . والمراء في مقابلة الباطل محذور ، إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل ، قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَى اللَّهُ لَهُ يَنْتَنًا فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى اللَّهُ لَهُ يَنْتَنًا فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ » . وقد سوى الله تعالى بين من اقترى على الله كذبا وبين من كذب بالحق ، فقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) وقال تعالى : (قَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

ومنها الرياء وملاحظة الخلق ، والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر ، كما سيأتي في كتاب الرياء ، والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق ، وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه

(١) حديث إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا باللسن وتباغضوا بالقلوب - الحديث : الطبراني من حديث سلمان باسناد ضعيف .

(٢) حديث من ترك المراء وهو مبطل - الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف ، قال الترمذي : حسن

فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة ، سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم :
 من الخصاص المؤدى الى الضرب واللكم والطمع ، وتزيق الثياب ، والأخذ بالحي ، وسب الوالدين
 وشتم الأستاذين ، والقذف الصريح ، فإن أولئك ليسوا معدودين في زمرة الناس المعتبرين ؛
 وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر . نعم قد يسلم بعضهم
 من بعضها ، مع من هو ظاهر الانحطاط عنه ، أو ظاهر الارتقاع عليه ، أو هو بعيد عن بلده
 وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة

ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل ، لم نطوّل
 بذكرها وتفصيل آحادها : مثل الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع ، وحب طلب المال
 والجاه ، للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والأشر ، والبطر ، وتمظيم الأغنياء والسلطين ، والتردد
 اليهم ، والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيل والمراكب والثياب المحظورة ، والاستحقار
 للناس بالفخر والخيلاء ، والخوض فيما لا يعنى ، وكثرة الكلام ، وخروج الخشية والخوف والرحمة
 من القلب ، واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى ، وما الذى يقرأ
 ومن الذى يناجيه ، ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التى تعين في
 المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة : من تحسين العبارة ، وتسجيع اللفظ ، وحفظ النوادر ، إلى
 غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ، ولهم درجات شتى ،
 ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جل من مواد هذه الأخلاق ، وإنما غاية إخفاؤها
 ومجاهدة النفس بها .

واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول
 وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة ، وهى لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان
 قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران

وبالجملة هى لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة . فالعلم لا يهمل
 العالم بل يهلكه هلاك الأبد ، أو يحويه حياة الأبد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ
 عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ، وليته نجا منه رأساً
 برأس ؛ وهيهات هيهات ! فخطر العلم عظيم ، وطالبه طالب الملك المؤيد والنعيم السرمد ، فلا

ينفك عن المُلْك أو الهُلْك ، وهو كطالب الملك في الدنيا ، فإن لم يتفق له الإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال ، بل لابد من لزوم أفضح الأحوال

فان قلت : في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم ، إذ لولا حب الرياسة لاندست العلوم . فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ، ولكنه غير مفيد ، إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالمصافير ما رغب الصبيان في المكتب ، وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم ، ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج ، بل هو من الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلْقَ لَهُمْ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » . فطالب الرياسة في نفسه هالك ، وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا ، وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ، ولكنه يضر قصد الجاه . فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره ؛ فصالح غيره في هلاكه . فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها

فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره ، وهم المصححون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ؛ وإما مسعد نفسه وغيره ، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهرا وباطنا ؛ وإما مهلك نفسه مسعد غيره ، وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه . فانظر من أي الأقسام أنت ، ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له ؛ فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل . وسيأتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربح المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه ، إن شاء الله تعالى

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم : النسائي من حديث أنس باسناد صحيح

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : متفق عليه من حديث أبي هريرة

الباب الخامس

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة، ولكن تنظم تفاريقها عشر جل :
 الوظيفة الأولى - تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ؛ إذ العلم
 عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى . وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة
 الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن
 وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف . قال صلى الله
 عليه وسلم ^(١) « بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النُّظَافَةِ » وهو كذلك باطنا وظاهرا ؛ قال الله تعالى : (إِنَّمَا
 الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) تنبيها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة
 بالحواس ، فالشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر ، أي باطنه
 ملطخ بالخبائث . والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه ، وخبائث صفات الباطن
 أهم بالاجتناب ، فانها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
 « لَا تَدْخُلُ ^(٢) الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ » والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل
 استقرارهم ؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد ، والحسد والكبر والعجب ،
 وأخواتها ، كلاب نابجة ؛ فأتى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور العلم لا يقذفه الله
 تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة ؟ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ
 وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى

الباب الخامس

- (١) حديث بنى الدين على النظافة: لم أجده هكذا. وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: تنظفوا فان الاسلام
 نظيف . ولاطبراني في الاوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود: النظافة تدعو الى الايمان
 (٢) حديث لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب: متفق عليه من حديث أبي طلحة الانصاري

القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها ، وهم المقدسون للطهرون المبرءون من الصفات المذمومات ، فلا يلاحظون إلا طيبا ، ولا يعمرن بما عندهم من خزان رحمة الله إلا طيبا طاهرا . ولست أقول : المراد بلفظ البيت هو القلب ، وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة ، ولكني أقول : هو تنبيهه عليه . وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر . ففارق الباطنية بهذه الدققة ، فإن هذه طريق الاعتبار ، وهو مسلك العلماء والأبرار ، إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه ، كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة : بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة للمصائب ؛ وكون الدنيا بصدد الانقلاب ؛ فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة . فاعبر أنت أيضا من البيت الذي هو بناء الخلق ، إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى ؛ ومن الكلب الذي ذم لصفته لا لصورته وهو ما فيه من سبعة ونجاسة ، إلى الروح الكلية وهي السبعة واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس ، كلب في المعنى ، وقلب في الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور ؛ والصور في هذا العالم غالبية على المعاني ، والمعاني باطنة فيها ، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني ، وتغلب المعاني ، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية ، فيحشر الممزق^(١) لأعراض الناس كلبا ضاريا ، والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا ، والمتكبر عليهم في صورة نمر ، وطالب الرياسة في صورة أسد . وقد وردت بذلك الأخبار ، وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار

فان قلت : كم من طالب ردى الأخلاق حصل العلوم . فهيات ما أبعد عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة ! فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة . وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلقونه بالسنتهم مرة ، ويرددونه بقلوبهم أخرى ، وليس ذلك من العلم في شيء ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب . وقال بعضهم :

(١) حديث حشر الممزق لأعراض الناس في صورة كلب ضار - الحديث : الثعلبي في التفسير من حديث البراء

إنما العلم الخشية لقوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). وكأنه أشار إلى أخص نعمات العلم. ولذلك قال بعض المحققين: معنى قولهم: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه فان قلت: إني أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برّزوا في الفروع والأصول، وعُدوا من جملة الفحول، وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها. فيقال: إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما، وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى. وقد سبقت إلى هذا إشارة، وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح، إن شاء الله تعالى

الوظيفة الثانية — أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا، ويبعد عن الأهل والوطن، فان العلائق شاغلة وصارفة، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر. والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع الوظيفة الثالثة — أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويدعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق. وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته، قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس^(١) فأخذ بركابه، فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) «لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ التَّمَلُّقُ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ». فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة

(١) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء: الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل الا أنهم قالوا: هكذا نفعل. قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم

(٢) حديث ليس من أخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم: ابن عدى من حديث معاذ وأبي أمامة بإسنادين ضعيفين

إلا من الموقنين المشهورين، وهو عين الحماقة . فان العلم سبب النجاة والسعادة . ومن يطلب
مهربا من سبع ضار يقتدره لم يفرق بين أن يرشده الى الحرب مشهور أو خامل ، وضراوة
سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع . فالحكمة ضالة المؤمن يفتنمها حيث
يظفر بها ، ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائنا من كان ، فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للمكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع . قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) . ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ثم
لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلتقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ، ليستقبل كل ما ألقى اليه
بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فيمكن المتعلم لمعلمه كأرض دمنة نالت
مطرا غزيرا فشربت جميع أجزائها ، وأذغت بالسكية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق
فى التعلم فليقلده وليدع رأيه ، فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه ، إذ التجربة تطلع
على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محروور يعالجه الطبيب فى
بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج ، فيعجب منه من لا خبرة له به .
وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال :
(فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) ثم لم يصبر ولم يزل فى
مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجمله كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون
اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران . فان قلت : فقد قال الله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فالسؤال مأمور به

فاعلم أنه كذلك ، ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه ، فان السؤال عما لم تبلغ مرتبتك
الى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال ، أى دع السؤال قبل
أوانه فالعلم أعلم بما أنت أهل له ، وبأوان الكشف ، وما لم يدخل أوان الكشف فى كل درجة
من مراتب الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضى الله عنه : إن من حق العالم

أن لا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلج عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بشوبه إذا نهض ، ولا تنقش له سرا ، ولا تغتاب أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته

الوظيفة الرابعة — أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصنى إلى المذاهب والشبه ، وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فإن إضلاله أكثر من إرشاده ، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يعد في عمى الخيرة وتيه الجهل . ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار ، ونذب القوى إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوى على مخالطة الكفار . ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ، ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدرك أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفي ذلك قال بعضهم : من رآني في البداية صار صديقا ، ومن رآني في النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن ، وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض ، فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيهات . فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور ، وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام . وتشبه الضعيف بالقوى فما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهي اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة في كوز ماء ، ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر والبحر أعظم من الكوز ، فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز . ولا يدرك المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحمله إلى صفته . ولمثل هذا جوز للنبي صلى الله عليه وسلم ما لم يجوز لغيره ^(١) «حَتَّى أُبَيِّحَ لَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ»

(١) حديث أبيح له صلى الله عليه وسلم تسع نسوة ، وهو معروف . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع — الحديث

إذ كان له من القوة ما يتعدى منه صفة العدل إلى نساته وإن كثرن . وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما يبين من الضرر إليه ، حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن ، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة — أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه ، وتطرف من البقية ، فإن العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله ، فإن الناس أعداء ما جهلوا ، قال تعالى « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مُرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإيانة . ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظه كحفاظ الرباطات والشعور ، ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى الوظيفة السادسة — أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب ، ويتدبىء بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ، ويكتفي منه بشمه ، ويصرف جهام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة ، أعني قسمي المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى . ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العاوي وراثته أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه ^(١) الذي «لَوْ وَزَنَ الْإِيمَانُ الْعَالَمِينَ لَاجْتَحَ» كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فما عندي أن ما يعتقده العاوي ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العاوي إلا في صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاماً ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي

(١) حديث لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح : ابن عدى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

ورواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر باسناد صحيح

وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدري ما يسمعه على وفقه ، ويزعم أنه من ترهات الصوفية ، وأن ذلك غير معقول ، فينبغى أن تتد فى هذا فعنده ضيعت رأس المال ، فكن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه إلا حرصك فى الطلب

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره . وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رأى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء ، وفى يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب . الوظيفة السابعة — أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج ، قال الله تعالى : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا . وليكن قصده فى كل علم يتجراه الترقى إلى ما هو فوقه ، فينبغى أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بخالفتهم موجب علمهم بالعمل ، فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ، وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب معيار العلم . وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب خطأ شاهدوه من طيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفاق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه خطأ اتفاق لآخر ، والكل خطأ ، بل ينبغى أن يعرف الشيء فى نفسه . فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص . ولذلك قال على رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة — أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيان : أحدهما شرف الثمرة ، والثانى وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة أحدهما الحياة الأبدية ، وثمره الآخر الحياة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم ، فان علم الحساب أشرف لوثاقه أدلته وقوتها ، وإن نسب الحساب إلى الطب كان

الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظة الثمرة أولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم . فإياك وأن ترغب إلا فيه ، وأن تحرص إلا عليه

الوظيفة التاسعة - أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المال القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملائكة الأعلى من الملائكة والمقرين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وممارسة السفهاء ومباهاة الأقران ، وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة . ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ، أعني علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة ، وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والتمتات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية . ولا تفهم من غلونا في الشناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ، فالتكفلون بالعلوم كالتكفلين بالشغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله ، فمنهم المقاتل ، ومنهم الرّدء ، ومنهم الذي يسقيهم الماء ، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم . ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم ، فكذلك العلماء ، قال الله تعالى : (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . وقال تعالى : (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ) . والفضيلة نسبية ، واستحقاقنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين . فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر ، بل الرتبة العليا للأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم العلماء الراسخين في العلم ، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم . وبالجملة من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان ، نفعه ، ورفع له لا محالة

الوظيفة العاشرة - أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد ، كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره . ومعنى المهم ما يهمك ، ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القراءان وشهد له من نور البصائر ما يجري العيان ، فالأهم ما يبقى أبداً الآباد ؛ وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً ، والبدن مركباً ، والأعمال سعياً إلى المقصد . ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ، ففيه النعيم كله ، وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره

إلا الأفلون . والعلوم بالاضافة إلى سادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ، أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلمين ، على ثلاث مراتب ، تفهمها بالموازنة بمثال : وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له : إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعا ، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعافك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك ، فله ثلاثة أصناف من الشغل : (الأول) تهئية الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة . و(الثانى) السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل . و(الثالث) الاشتغال بأعمال الحج ركنا بعد ركن ، ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة . وله فى كل مقام منازل ، من أول إعداد الأسباب إلى آخره ، ومن أول سلوك البوادرى إلى آخره ، ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتداء بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد فى إعداد الزاد والراحلة ، ولا كقرب من ابتداء بالسلوك ، بل هو أقرب منه . فالعلوم أيضا ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة ، وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا . وقسم يجرى مجرى سلوك البوادرى وقطع العقبات ، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشائخة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين ، فهذا سلوك الطريق ، وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله . وكما لا يبنى علم المنازل وطرق البوادرى دون سلوكها ، كذلك لا يبنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه ، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه فى تراجم علم المكاشفة ، وهاهنا نجاة وفوز بالسعادة ، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى ، وهم المقربون المنعمون فى جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم . وأما المنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة ، كما قال الله عز وجل : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) . وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له ، أو انتهض إلى جهته

لا على فصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين، فله نُزُل من حميم وتصلية جسيم

واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين، أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار، وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع، وحالهم حال من آخر فصّدق، ثم شاهد فحقق، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والايان ولم يحط بالمشاهدة والعيان. فالسعادة وراء علم المكاشفة، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة. وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات. وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن: ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى اللبس والمطعم والمسكن، وهو منوط بالسلطان، وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه. وأما أسباب الصحة في ناصية الطبيب. ومن قال: العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، وأشار به إلى الفقه، أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة

فان قلت: لم شبهت علم الطب والفقه بأعداد الزاد والراحلة؟

فاعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس، ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح، وتارة بالنفس المطمئنة. والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر، وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة. وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة، وهو مضمون به بل لا رخصة في ذكره. وغاية المأذون فيه أن يقال: هو جوهر نفيس ودرع عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية، وإنما هو أمر إلهي، كما قال تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن سبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن، فله الخلق والأمر جميعاً، والأمر أعلى من الخلق، وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أين أن يحملنها وأشفقن منها، من عالم الأمر. ولا يفهم من هذا أنه تعرض بقدمها، فان القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول. فلتقبض عنان البيان عن هذا الفن، فهو وراء ما نحن

بصدده . والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب ، فنه مصدرها، واليه مرجعها. وأما البدن فطبيعتها التي تركيبها وتسعى بواسطتها. فالبدن لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في طريق الحج ، وكالراوية الخازنة للماء الذي يفتقر اليه البدن ، فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية ، ولا يخفى أن الطب كذلك، فانه قد يحتاج اليه في حفظ الصحة على البدن ، ولو كان الانسان وحده لا يحتاج اليه ، والفقه يفارقه في أنه لو كان الانسان وحده ربما كان يستغنى عنه، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده ، إذ لا يستقل بالسعى وحده في تحصيل طعامه ، بالحراثة والزرع والخبز والطبخ، وفي تحصيل الملبس والسكن، وفي إعداد آلات ذلك كله ، فاضطر إلى المخالطة والاستعانة ، ومهما اختلط الناس وثارَت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج ، كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأعمال فقه ، وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية . فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج ، والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانه . فتأمل هذا أولاً ، واقبل النصيحة مجّاناً ممن قام عليه ذلك غالباً ولم يصل اليه إلا بعد جهد جهيد ، وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة ، في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة . فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم

بيان وظائف المرشد المعام

اعلم أن للانسان في علمه أربعة أحوال، كحاله في اقتناء الأموال : اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه

فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا ، وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال ، فله حال طلب واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال . فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات ، فانه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها ، وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب . والذي يعلم ولا يعمل به كالدقير الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع ، والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية ، وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق ، كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت * تضيء للناس وهي تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسما ، فليحفظ آدابه ووظائفه الوظيفة الأولى - الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة ، أغنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك ، نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادر ، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا ، فان العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى ، وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق ، والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب ، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه ولا ضيق في سعادة الآخرة ؟ فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ، ولا سعة في سعاداتهم الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التراحم .

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

والمعادون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)
وداخلون في مقتضى قوله تعالى : (الْآخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)

الوظيفة الثانية - أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ؛ ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تقترب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تريد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب ؟ فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى ، كما قال عز وجل : (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) فإن المال وما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم ، إذ به شرف النفس ؛ فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفها ، فجعل المخدوم خادماً والمخدوم مخدوماً ، وذلك هو الاتكاس على أم الراس . ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكس رؤوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم . فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيها وفي غيرها ، فانهم يبدلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ، ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف اليهم ، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة ، وينصر وليه ، ويمادى عدوه ، وينتفض جهاراً له في حاجاته ، ومسخر بين يديه في أوطاره ، فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه ، فأخسب . بالمعلم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ، ثم لا يستحي من أن يقول : غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه ! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاختارات .

الوظيفة الثالثة - أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى

ما يمكن، فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده، فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه: فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام، فيمنعه من ذلك، فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث، وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه، فانه يشمر له طمعا في الوعظ والاستبعا، ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره، إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة، وذلك يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره، ويجرى حُب القبول والجاه مجرى الحُب الذي ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير، وقد فعل الله ذلك بعباده، إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل، وخلق أيضا حُب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم. وهذا متوقع في هذه العلوم

فأما الخلافات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريح الغريبة فلا يزيد التجرد لها من الإعراض عن غيرها إلا قسوة في القلب، وغفلة عن الله تعالى، وتغاديا في الضلال، وطلبا للجاه، إلا من تداركه الله تعالى برحمته، أو مزج به غيره من العلوم الدينية، ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة. فانظر واعتبر، واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد، والله المستعان. وقد رثى سفيان الثوري رحمه الله حزينا، فقيل له: مالك؟ فقال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا

الوظيفة الرابعة وهي من دقائق صناعة التعليم - أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التجهيز يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار، إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم ^(١) «لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ الْبَعْرِ لَفَتَوْهُ وَقَالُوا قَاتِلُنَا عَنْهُ إِلَّا وَفِيهِ شَيْءٌ»! وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهاها عنه، فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا، بل لتنبه بها على سبيل العبرة، ولأن التعريض أيضا يميل

(١) حديث لو منع الناس عن فت البعر لفتوه - الحديث: لم أجده

النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفتن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن قطته

الوظيفة الخامسة - أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبّح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كعلم اللغة إذ عاداته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عاداته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ، ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان ، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن . فهذه أخلاق مذمومة للمعالمين ينبغي أن تجنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ؛ وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة

الوظيفة السادسة - أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : ^(١) « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمَرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » . فليث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَى بَعْضِهِمْ » . وقال على رضي الله عنه وأشار إلى صدره : إن هاهنا لعلوم أجمّة لو وجدت لها حملة . وصدق رضي الله عنه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغي أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد . هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للتنافع به ، فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير ، فإن الحكمة خير من الجواهر ، ومن كرهها فهو شر من الخنازير . ولذلك قيل : كل لكل عبد بعميار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ! »

(١) حديث نحن معشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم - الحديث : رويناه في جزء من حديث أبي بكر

ابن الشخير من حديث عمر أخضر منه ، وعند أبي داود من حديث عائشة : أنزلوا الناس منازلهم

(٢) حديث من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار : ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد

ضعيف ، وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه

فقال : اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليجمنى ، فقد قال الله تعالى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق :

أأثر درّاً بين سارحة النعم	فأصبح مخزوناً براعية النعم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره	فلا أنا أضحي أن أطوقه بهم
فان لطف الله اللطيف بلطفه	وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
نشرت مفيدا واستفدت مودة	وإلا فمخزون لدى ومكتم
فمن منح الجهال علماً أصاعه	ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة — أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ، فان ذلك يفتر رغبته في الجلى ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله ، وأشدّهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكامل عقله . وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ، ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريره ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلّى وحرفته ، فانه لو ذكر له تأويلات الظاهر أنحلّ عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ، فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي ، وينقلب شيطانا يريد أن يهلك نفسه وغيره ، بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصدددها ، ويعمل قلوبهم من الرغبة والرغبة في الجنة والنار ، كما نطق به القرآن ، ولا يحرك عليهم شبهة ، فانه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك . وبالجمل لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث ، فانه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ، ودوام عيش الخواص

الوظيفة الثامنة — أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعلة ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تناولوه فانه سم مهلك ، سخر الناس به وأتهموه ، وزاد

حرصهم على ما هو عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟! ولذلك قيل في المعنى :

لأنه عن مُخلَق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) . ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ، ويقتدون به ، و«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» ، ولذلك قال على رضى الله عنه : قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ : عَالِمٌ مَهْتَكٌ ، وَجَاهِلٌ مَتَنَسَكٌ ، فالجاهل يفر الناس بتنسكه ، والعالم يفرهم بتهتكه . والله أعلم

الباب السادس

في آفات العلم

وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة ، فمن المهات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) « لَا يَكُونُ الْمَرْءُ عَالِمًا حَتَّى يَكُونَ بِعِلْمِهِ عَامِلًا » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ ، فَذَلِكَ حُجَّةٌ

﴿ الباب السادس ﴾

(١) حديث لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا : ابن حبان في كتاب روضة العقلاء ، والبيهقي في المدخل موقوفا على أبي الدرداء ، ولم أجده مرفوعا

(٢) حديث العلم علمان علم على اللسان - الحديث : الترمذي الحكيم في الوارد ، وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح ، وأسند الطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر باسناد جيد ، وأعله ابن الجوزي

الله تعالى على خلقه ؛ وعلم في القلب فذلك العلم النافع . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِبَادُ جُهَالٍ وَعُلَمَاءُ فَسَاقٍ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ وَلِتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، وَلِتَضْرِبُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا عِنْدَهُ أَجَلَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « لَأَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَالِ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَالِ » فقيل : وما ذلك ؟ فقال : « مِنَ الْأَعْمَةِ الْمُضِلِّينَ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « مَنْ أَرَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزِدْهُ هُدًى لَمْ يَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا » . وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للمذبلين وأنتم مقيمون مع المتحيرين !

فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم ، فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد ، أو لسعادة الأبد ، وإنه بالخوض في العلم قد حُرِمَ السلامة إن لم يدرك السعادة وأما الآثار ، فقد قال عمر رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المناقاة العليم . قالوا : وكيف يكون منافقا علما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ، ويجري في العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعة له . وقيل لأبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول تديما ؟ قال : أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد : الرجال

(١) حديث يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة : الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف

(٢) حديث لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء - الحديث : ابن ماجه من حديث جابر باسناد صحيح

(٣) حديث غير الدجال أخوف عليكم من الدجال - الحديث : أحمد من حديث أبي ذر باسناد جيد

(٤) حديث من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

وحديث علي باسناد ضعيف إلا أنه قول : زهدا . وروى ابن جبان في روضة العقلاء موقوفا على الحسن :

من ازداد علما ثم ازداد على الدنيا حرصا لم يزد من الله إلا بعدا . وروى أبو الفتح الأذري في الضعفاء

من حديث علي من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا جبا ازداد الله عليه غضبا .

أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فارفضوه . وقال سفیان الثوري رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إني لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر ، وعالماً تلعب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري ديناه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وقال صلى الله عليه وسلم : ^(١) « إِنَّ الْعَالَمَ لَيُعَذَّبُ عَذَابًا يُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ أَسْتَظْظِمُ الشَّدَّةَ عَذَابِهِ » أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ^(٢) : « يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ أَمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » . وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم . ولذلك قال الله عز وجل : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة ، إذ قال الله : (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) وقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء : (وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَاخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

(١) حديث إن العالم يعذب عذاباً يطيف به أهل النار - الحديث : لم أجده بهذا اللفظ ، وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد : يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أقباؤه - الحديث : متفق عليه - بلفظ أرجل بدل العالم

حتى قال : (فَشَلُّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) فكذلك العالم الفاجر .
فإن بلاءه أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات ، فشبه بالكلب ، أى سواء أوتى
الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات

وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لاهى تشرب
الماء ولاهى تترك الماء يخلص الى الزرع . ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص
وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من
الجاهل ؛ وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ، ولهم علامات :

فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه ، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها
وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ، ويعلم أنهما
متضادتان ، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما ككفتى
الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى ، وأنهما كالشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما
بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ ؛ فبقدر ماتصّب منه فى الآخر
حتى يمتلئ يفرغ الآخر ؛ فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام
ما يصفو منها ، فهو فاسد العقل ، فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك ، فكيف يكون من
العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان ، فكيف
يكون من العلماء من لا إيمان له ؟ ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة ، وأن الجمع بينهما طمع فى
غير مطمع ، فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم ، بل هو كافر بالقراءان كله من أوله الى آخره ،
فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان
قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته ؟

وفى أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته
على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي . يادود لا تسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن
طريق محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي . يادود إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما .

يا داود من رد إلى هارباً كتبته جهبذا ، ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبداً . ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص . وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم ، فإن كل محب يخوض فيما أحب . وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت في بعض الكتب السالفة أن الله تعالى يقول : إن أهون ما صنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم . وكان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قصيرة ، وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية : وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآتمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ! قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال آخر :

يامعشر القراء ياملح البلد ما يصالح الملح إذا الملح فسد !
وقيل لبعض العارفين : أترى أن من تكون المعاصي قرّة عينه لا يعرف الله ؟ فقال : لا أشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير . ولا تظن أن ترك المال يكفي في الحقوق لعلماء الآخرة ، فإن الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر : جدّنا ، باب من أبواب الدنيا ، فإذا سمعت الرجل يقول حدثنا فأنما يقول أو سمعوا إلى . ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر ما بين قطرة وقوصرة من الكتب ، وكان يقول أنا أشتهى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت . وقال هو وغيره : إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت ، فإذا لم تشته تحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الافادة ومنصب الارشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا ، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثوري : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد ، وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : (وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا ، والآخرة منه العمل به ، والعمل كله هباء إلا
 الاخلاص : وقال الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء سُكَّارَى إلا العاسلين ، والعاملون كلهم
 مغرورون إلا المخلصين ، والمخلص على وجل حتى يدرى ماذا يختم له به . وقال أبو سليمان الداراني
 رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا .
 وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية ، أو طلب الحديث الذي لا يحتاج اليه في طلب الآخرة .
 وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق
 دنياه ؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطالب الكلام ليخبر به ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان
 البصري : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضي
 الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ
 تَعَالَى لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ أَجْنَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »

وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد
 فقال عز وجل في علماء الدنيا : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
 تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) وقال تعالى في علماء الآخرة :
 (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ
 لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقال بعض السلف : العلماء
 يحشرون في زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين . وفي معنى القضاة كل فقيه
 قصده طلب الدنيا بعلمه

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(٢) « أَوْحَى اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ إِلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ : قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِيُغَيِّرُوا الدِّينَ ، وَيَتَعَلَّمُونَ لِيُغَيِّرُوا الْعَمَلَ ،

(١) حديث أبي هريرة من طلب علما مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً - الحديث : أبي داود وابن ماجه
 باسناد جيد

(٢) حديث أبي الدرداء أوحى الله الى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين - الحديث : ابن عبد البر
 باسناد ضعيف

وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الْكِبَاشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذُّنَابِ
الَّذِينَ أَحْلَى مِنَ الْقَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ ، إِيَّايَ يُخَادِعُونَ ، وَيَبْتَهِزُّونَ :
لَأَفْتَحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَذَرُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا »

وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١)
« غُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلَانِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعًا وَلَمْ
يَشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يُصَلِّي عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ وَحَيْثَانُ الْمَاءِ وَدَوَابُّ الْأَرْضِ وَالْكَرَامُ
الْمَكَاتِبُونَ ، يُقَدِّمُ عَلَى اللَّهِ عِزًّا وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيِّدًا شَرِيفًا حَتَّى يُرَافِقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَرَجُلٌ
آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعًا وَأَشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يَأْتِي
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَاجِمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يُنَادِي مُنَادٍ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ : هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ
آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَخَذَ بِهِ طَمَعًا وَأَشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَيُعَذَّبُ حَتَّى يَفْرَغَ
مِنْ حِسَابِ النَّاسِ »

وأشد من هذا ما روى أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول : حدثني موسى
صلى الله ، حدثني موسى نبي الله ، حدثني موسى كليم الله ، حتى أترى وكثر ماله ، ففقدته موسى
عليه السلام ، فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبرا ، حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي
عنقه جبل أسود ، فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم ، هو هذا الخنزير ؛
فقال موسى : يا رب أسألك أن تردّه إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل
إليه : لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به :
لأنه كان يطلب الدنيا بالدين

وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا في رواية عن النبي

(١) حديث ابن عباس علماء هذه الأمة رجلان - الحديث : الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف

صلى الله عليه وسلم قال : ^(١) « مِنْ فِتْنَةِ الْعَالَمِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْاسْتِمَاعِ ، وَفِي الْكَلَامِ تَنْمِيقٌ وَزِيَادَةٌ وَلَا يُؤْمَنُ عَلَى صَاحِبِهِ الْخَطَأُ ، وَفِي الصَّمْتِ سَلَامَةٌ وَعِلْمٌ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَحْزَنُ عِلْمَهُ فَلَا يُحِبُّ أَنْ يُوجَدَ عِنْدَ غَيْرِهِ فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ الْأَوَّلِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يُكُونُ فِي عِلْمِهِ بِعِزَّةِ السُّلْطَانِ إِنْ رُدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ هُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّهِ غَضِبَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ الثَّانِي مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَجْعَلُ عِلْمَهُ وَغَرَائِبَ حَدِيثِهِ لِأَهْلِ الشَّرَفِ وَالْيَسَارِ وَلَا يَرَى أَهْلَ الْحَاجَةِ لَهُ أَهْلًا فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ الثَّلَاثِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ لِلْفِتْنَةِ بِالْخَطَأِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُنْغِضُ الْمُتَكَلِّفِينَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ الرَّابِعِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِيَفْزُرَ بِهِ عِلْمَهُ فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ الْخَامِسِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَّخِذُ عِلْمَهُ مَرْوَةً وَبُلًّا وَذِكْرًا فِي النَّاسِ فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ السَّادِسِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَسْتَفِزُهُ الزَّهْوُ وَالْعُجْبُ فَإِنْ وَعَظَ عَنَفَ وَإِنْ وَعَظَ أُنِفَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَكِ السَّابِعِ مِنَ النَّارِ . فَعَلَيْكَ يَا أَخِي بِالصَّمْتِ فِيهِ تَغْلِبُ الشَّيْطَانُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضْحَكَ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ أَوْ تَمْشِي فِي غَيْرِ أَرْبٍ »

وفي خبر آخر ^(٢) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَنْشُرُ لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ مَا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ » وروى أن الحسن حمل اليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البر وقال : يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة . فقال الحسن : عافاك الله تعالى ، ضم اليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك ، إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا ، لقي الله تعالى يوم القيامة

(١) حديث معاذ من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع - الحديث: أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة : لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة

ولا خلاق له! وعن جابر رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)
 « لَا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ عَالِمٍ إِلَّا إِلَى عَالِمٍ يَدْعُوكُمْ مِنْ خَمْسٍ إِلَى خَمْسٍ : مِنْ الشَّكِّ إِلَى الْبَقِيَّةِ
 وَمِنْ الرِّبَا إِلَى الْإِخْلَاصِ ، وَمِنْ الرُّغْبَةِ إِلَى الزُّهْدِ ، وَمِنْ الْكِبَرِ إِلَى التَّوَّاضُعِ ، وَمِنْ
 الْعَدَاوَةِ إِلَى النَّصِيحَةِ ، قَالَ تَعَالَى : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ
 ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ) الآية . فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا

ومنها أن لا يخالف فعله قوله ، بل لا يأمر بالشىء ما لم يكن هو أول عامل به ، قال الله
 تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) وقال تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
 تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) وقال تعالى فى قصة شعيب : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)
 وقال تعالى : (وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) وقال تعالى : (وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا) (وَأَتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَسْمِعُوا) . وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يَا أَبْنَا مَرْيَمَ عِظْ نَفْسَكَ فَإِنْ أَلَمَّكَ النَّاسُ
 وَإِلَّا فَاسْتَحِىْ مِنِّي » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرَى بِي بِأَقْوَامٍ
 تُتْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَقَالُوا : كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ
 وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « هَلَاكُ أُمَّتِي عَالِمٌ فَاجِرٌ وَعَابِدٌ جَاهِلٌ
 وَشَرُّ الشَّرَارِ شَرَارُ الْعُلَمَاءِ ، وَخَيْرُ الْخِيَارِ خِيَارُ الْعُلَمَاءِ »

وقال الأوزاعى رحمه الله : شكت النواويس ما تجد من تن جيف الكفار ، فأوجى
 الله إليها : بطون علماء السوء أتت مما أنتم فيه . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغنى أن

(١) حديث جابر لا تجلسوا عند كل عالم - الحديث : أبو نعيم فى الحلية وابن الجوزي فى الموضوعات

(٢) حديث مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار - الحديث : ابن جبان من
 حديث أنس

(٣) حديث هلاك أمتى عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء - الحديث : الداريمى من رؤية الأحوص بن
 حكيم عن أبيه مرسلًا بآخر الحديث نحوه ، وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديكم وتعليمكم ؟ فيقولون : إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهي عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متها اذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها
وقال آخر :

لاتنه عن خالق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوب عليه : اقلبنى تعتبر : فقلبتة فاذا عليه مكتوب : أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم ! وقال ابن السماك رحمه الله : كم من مذكّر بالله ناس لله ؛ وكم من مخوف بالله جرى على الله ، وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ؛ وكم من داع إلى الله فارت من الله ؛ وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ! وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحننا في أعمالنا فلم نهرب . وقال الأوزاعي : إذا جاء الأعراب ذهب الخشوع

وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ^(١) « تَعَلَّمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا فَلَنْ يَأْجَرَ كُمْ اللَّهُ حَتَّى تَعْمَلُوا » وقال عيسى

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة تعلموا ما شئتم أن تعلموا فإن يأجركم الله حتى تعملوا :

علفمة بن عبد البر وأسد بن عدى وأبو نعيم والحطيب في كتاب إفضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوفا على معاذ بسند صحيح

عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت ؛ فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زلّة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضى الله عنه : إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق . وقال عمر رضى الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان : إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتى على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه ، فتكون قلوب علمائهم مثل السباح من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم ، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يحشى الله بلسانه والفجور ظاهر فى عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجذب القلوب ! فوالله الذى لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى ، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفى التوراة والانجيل مكتوب : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم وقال حذيفة رضى الله عنه : إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك ، وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا ، وذلك لكثرة البطالين

واعلم أن مثل العالم مثل القاضى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْجَوْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لَا يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ » . وقال كعب رحمه الله : يكون فى آخر الزمان علماء يزهّدون الناس فى الدنيا ولا يزهّدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغيرون على العلم كما تتغير النساء على الرجال ، يفضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنَّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا يُسَوِّفُكُمْ بِالْعِلْمِ » فقيل يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم :

(١) حديث القضاة ثلاثة - الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة ، وهو صحيح
(٢) حديث إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم - الحديث : فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف

« يَقُولُ : اَطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَعْمَلْ حَتَّى تَعْلَمَ ، فَلَا يَزَالُ لِلْعِلْمِ قَائِلًا وَلِلْعَمَلِ مُسَوِّفًا حَتَّى يَمُوتَ وَمَا عَمَلٌ »

وقال سِرَى السَّقَطِي : اعتزل رجل للتعبد كان حريصا على طلب علم الظاهر ، فسأله فقال : رأيت في النوم قائلا يقول لي إلى كم تضع العلم ضيعك الله ! فقلت : إني لأحفظه ، فقال حفظ العلم العمل به . فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم لخشية . وقال الحسن : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا ، فإن السفهاء همته الرواية ، والعلماء همته الرعاية . وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صححت فيه النية ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئا

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا ، وسيأتى قوم يشقونه مثل القناة ليسوا بخياركم ، والعالم الذى لا يعمل كالمريض الذى يصف الدواء ، وكالجامع الذى يصف لذائد الأطلعة ولا يجدها وفى مثله قوله تعالى : (وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) وفى الخبر ^(١) « مِمَّا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَلَّةُ عَالِمٍ وَجِدَالُ مُنَافِقٍ فِي الْقُرْآنِ »

ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة ، المرغب فى الطاعات ، مجتنباً للعلوم التى يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقليل والقال . فثال من يعرض عن علم الأعمال ويشغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً فى وقت ضيق يخشى فواته ، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب ، وترك مهمه الذى هو مؤاخذته ، وذلك محض السفه . وقد روى ^(٢) « أَنَّ رَجُلًا جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : عَلَّمَنِي مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا صَنَعْتَ فِي رَأْسِ الْعِلْمِ ؟

(١) حديث مما أخاف على أمتي زلة عالم - الحديث : الطبرانى من حديث أبى الدرداء ، وابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين

(٢) حديث ان رجلاً جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني من غرائب العلم - الحديث : ابن السني وأبو يعيم فى كتاب الرياضة لهما وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسل وهو ضعيف جداً

فَقَالَ : وَمَا رَأْسُ الْعِلْمِ ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ عَرَفْتَ الرَّبَّ تَعَالَى ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ فِي حَقِّهِ ؟ قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ عَرَفْتَ الْمَوْتَ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ : فَمَا أَعَدَدْتَ لَهُ ؟ قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اذْهَبْ فَأُحْكِمْ مَا هُنَاكَ ثُمَّ تَعَالِ نُعَلِّمُكَ مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ »

بل ينبغي أن يكون المتعلم من جنس ما روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي رضى الله عنهما : أنه قال له شقيق : منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت مني في هذه المدة ؟ قال : ثمانى مسائل . قال شقيق له : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ! قال يأستاذ لم أتعلم غيرها ، وإني لأحب أن أكذب . فقال : هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها

قال حاتم : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه الى القبر فاذا وصل الى القبر فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبى ، فاذا دخلت القبر دخل محبوبى معى ، فقال أحسنت يا حاتم ، فما الثانية ؟

فقال : نظرت فى قول الله عز وجل : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) فعلمت أن قوله سبحانه هو الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى

الثالثة : أنى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ، ثم نظرت الى قول الله عز وجل : (مَا عِنْدَكُمْ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) فكلما وقع معى شيء له قيمة ومقدار وجهته الى الله ليبقى عنده محفوظا

الرابعة : أنى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والى الحسب والشرف والنسب ، فنظرت فيها فاذا هى لاشيء ، ثم نظرت الى قول الله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريما

الخامسة : أنى نظرت الى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وأصل هذا كله الحسد ، ثم نظرت الى قول الله عز وجل : (نَحْنُ قَسَمًا يَبْتَلِيهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فتركت الحسدَ واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه، فتركت
عداوة الخلق عني

السادسة : نظرت الى هذا الخلق يعني بعضهم على بعض ، ويقا تل بعضهم بعضا ، فُرِجعت
إلى قول الله عز وجل (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) فعاديتَه وحده واجتهدت
في أخذ حذري منه ، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي ، فتركت عداوة الخلق غيره

السابعة : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل
فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت الى قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها ، فاشتغلت بما لله
تعالى عليّ ، وتركت مالى عنده

الثامنة : نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق : هذا على ضيعته ، وهذا
على تجارته ، وهذا على صناعته ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله ،
فرجعت الى قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) فتوكلت على الله عز وجل ،
فهو حسبي .

قال شقيق : يا حاتم وفقك الله تعالى ، فاني نظرت في علوم التوراة والانجيل والزبور
والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة ، وهي تدور على هذه الثمان مسائل ، فمن
استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة ..

فهذا الفن من العلم لا يهتم بأدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة ، فأما علماء الدنيا فيشتغلون
بما ييسر به اكتساب المال والجاه ، ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم
عليهم السلام . وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع ، وهم
اليوم ما يتعلمون إلا الكلام

ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب ، والتنعم في الملبس ، والتجمل
في الأثاث والمسكن ، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ، ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ،
ويعمل الى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك ، وكلما زاد الى طرف القلة ميله ازداد من الله قرب ،

وارتفع في علماء الآخرة حزبه . ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخوَّاص ، وكان من أصحاب حاتم الأصم : قال : دخلت مع حاتم إلى الرِّىِّ ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلاً نريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا على رجل من التجار متكشف يحب المساكين ، فأضافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد ، قال لحاتم : ألك حاجة ؟ فاني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل . قال حاتم : عيادة المريض فيها فضل ، والنظر إلى الفقيه عبادة ، وأنا أيضاً أجيء معك ، وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى ، فلما جئنا إلى الباب فاذا قصر مشرف حسن ، فبقى حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذه الحالة ! ثم أذن لهم فدخلوا ، فاذا دار حسناء قوراء ، واسعة نزهة ، واذا بزة وستور ، فبقى حاتم متفكراً ، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه ، واذا بفُرش وطبئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام ويده مذبذبة ، فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم ، فأوماً إليه ابن مقاتل أن اجلس ، فقال : لأجلس ، فقال : لعل لك حاجة ، قال : نعم ، قال : وما هى ؟ قال : مسألة أسألك عنها ، قال : سل ، قال : قم فاستو جالسا حتى أسألك ، فاستوى جالسا ، قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ فقال : من الثقات حدثونى به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل ، قال : حاتم : ففياً أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، وأصحابه إلى الثقات ، وأداه الثقات إليك : هل سمعت فيه من كان فى داره إشراف وكانت سعتها أكثر ، كان له عند الله عز وجل المنزلة أكبر ؟ قال : لا ، قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته ، كانت له عند الله المنزلة . قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت : بألنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم والصالحين رحمهم الله ، أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالخص والآجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة ، أفلا أكون أناشراً منه ؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضاً ، وبلغ أهل الرىِّ ماجرى بينه وبين ابن مقاتل ، فقالوا له : إن الطنافسى بقزوين أكثر توسعاً منه ،

فسار حاتم متعمدا فدخل عليه ، فقال : رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح ضلّاتي كيف أتوضأ للصلاة . قال نعم وكرامة ، يا غلام هات إناء فيه ماء ، فأتى به فقعده الطنافسي فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال : هكذا فتوضأ ، فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً ، فقال الطنافسي : باهذا أسرفت ، قال له حاتم : فيماذا ؟ قال : غسلت ذراعيك أربعاً ، فقال حاتم : يا سبحان الله العظيم : أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف ! فعلم الطنافسي أنه قصد ذلك دون التعلم ، فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً ، فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معي ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الامام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما عقله ! قوموا بنا إليه ، فلما دخلوا عليه قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك منهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيساً ، فإذا كنت هكذا سلمت ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة ، فقال : يا قوم أية مدينة هذه ؟ قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلي فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطيء بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضي الله عنهم ؟ قالوا : ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ، قال حاتم : يا قوم فهذه مدينة فرعون ! فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا : هذا العجمي يقول : هذه مدينة فرعون ، قال الوالي : ولم ذلك ؟ قال حاتم : لا تعجل عليّ أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت : مدينة من هذه ؟ فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت فأين قصره ، وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فأنتم بمن تأسيتم ؟ أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالخص والآجر ؟ فخلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى ، وسيأتي من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه

والتحقيق فيه : أن التزين بالمباح ليس بحرام ، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي : من المداهنة ، ومراعاة الخلق ومراءاتهم ، وأمور أخرى محظورة ، والحزم اجتناب ذلك ، لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها ألبتة ، ولو كانت السلامة مبدولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ في ترك الدنيا حتى ^(١) « نَزَعَ الْقَمِيصَ الْمُطَرَّرَ بِالْعَلَمِ » « وَنَزَعَ خَاتَمَ الذَّهَبِ » ^(٢) فِي أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ ، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه

وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك بن أنس رضى الله عنهما :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين . من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس . أما بعد : فقد بلغني أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطى ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت اليك المطى ، وارتحل اليك الناس ، واتخذوك إماما ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع . كتبت اليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى . والسلام فكتب اليه مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد . سلام الله عليك . أما بعد : فقد وصل إلى كتابك موقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعتك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطى ، فنحن نفعل ذلك ، ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) . وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا . والسلام

فانظر الى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأففى بأنه مباح ، وقد صدق فيها جميعا ، ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالانصاف والاعتراف في مثل

(١) حديث نزع القميص العلم : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر

هذه النصيحة ، فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح ، حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة ، والتجاوز الى المكروهات ، وأما غيره فلا يقدر عليه . فالتعريض على التمتع بالمباح خطر عظيم ، وهو بعيد من الخوف والخشية . وخاصة علماء الله تعالى الخشية . وخاصة الخشية التباعد من مظان الخطر

ومنها - أن يكون مستقصيا عن السلاطين ، فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد الى الفرار عنهم سبيلا ، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا اليه ، فإن الدنيا حلو خضرة ، وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم ، مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتقييح فعلهم . فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه ، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم ، أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم ، وذلك هو البهت الصريح . أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم ، وذلك هو السحت . وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الأدرار والجوائز وغيرها . وعلى الجملة فخالطتهم مفتاح للشروع ، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط

وقد قال صلى الله عليه وسلم ^(١) «مَنْ بَدَأَ جَفَاً - يَعْنِي مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَاً - وَمَنْ أَتَبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ أَفْتَتَنَ» وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِيَ، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ أَبْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى» قيل: أفلا نقاتلهم؟ قال صلى الله عليه وسلم «لَا، مَا صَلُّوا». وقال سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك . وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن ، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدفه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) «الْعُلَمَاءُ أَمْنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَمْ يُخَالِطُوا

(١) حديث من بدا جفا - الحديث : أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس

(٢) حديث سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتتكرون - الحديث : مسلم من حديث أم سلمة .

(٣) حديث أنس العلماء أمناء الرسل على عباد الله - الحديث : العقيلي في الضعفاء وذكره ابن الجوزي في الموضوعات

السُّلَاطِينِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَأَحْذَرُوهُمْ وَأَعْتَزِلُوهُمْ » رواه أنس
وقيل للأعمش : لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك ، فقال : لا تعجلوا : ثلث يموتون
قبل الإدراك ، وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق . والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل .
ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص .
وقال الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ^(١) « شَرَّارُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْأُمَرَاءَ ، وَخِيَارُ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْعُلَمَاءَ » .
وقال مكحول الدمشقي رحمه الله : من تعلم القراءان وتفقه في الدين ثم صحب السلطان
تلقا إليه وطمعا فيما لديه ، خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ما أسمع بالعالم
أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال : هو عند الأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال :
إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان
إلا وحسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك ، وأتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة
وكثرة المخالفة لهواه ، ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافا ، مع أني لا آخذ منه شيئا ، ولا
أشرب له شربة ماء ، ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني اسرائيل : يخبرون السلطان بالرخص
وبما يوافق هواه ، ولو أخبروه بالذي عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه ، وكان
ذلك نجاة لهم عند ربهم

وقال الحسن : كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الاسلام وصحبة لرسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال عبد الله بن المبارك ، عنى به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، قال : وكان لا
يغشى السلاطين ، وينفر عنهم . فقال له بنوه : يأتي هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم
في الاسلام فلو أتيتهم ! فقال : يا بني آتى جيفة قد أحاط بها قوم ، والله لئن استطعت لا أشاركهم
فيها ! قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالا ، قال : يا بني لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت
منافقا سميئا ! قال الحسن : خصمهم والله ، إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن ، دون الايمان .
وفي هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق ألبة ، وهو مضاد للايمان . وقال
أبو ذر لسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فانك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من

(١) حديث شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء : ابن ماجه بالشرط
الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء ، وذريعة صعبة للشيطان عليهم ، لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقي اليه أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزرعهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع ، الى أن يحيل اليه أن الدخول عليه من الدين ، ثم اذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويدهن ، ويخوض في الثناء والإطراء ، وفيه هلاك الدين . وكان يقال : العلماء اذا علموا عملوا ، فاذا عملوا شغلوا ، فاذا شغلوا فقدوا ، فاذا فقدوا طلبوا ، فاذا طلبوا هربوا

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله الى الحسن :
أما بعد فأشر على بأقوام أستهين بهم على أمر الله تعالى
فكتب اليه :

أما أهل الدين فلا يريدونك ، وأما أهل الدنيا فلن تريدكم ، ولكن عليك بالأشراف فانهم يصونون شرفهم أن يندسوه بالخيانة

هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وكان أزهد أهل زمانه ، فاذا كان شرط أهل الدين لهرب منه فكيف يستنسب طلب غيره ومخالطته . ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم ، إما ليلهم الى الدنيا ، وإما لمخالطتهم السلاطين

ومنها - ألا يكون مسارعا إلى الفتيا ، بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا ، فان سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلي ، أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدري ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية . هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم . وفي الخبر «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ» (١) : كِتَابٌ نَاطِقٌ ، وَسُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، وَلَا أُدْرِي ، قال الشعبي : لا أدري نصف العلم ، ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق ، لان الاعتراف بالجهل

(١) حديث العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري : الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفا

على ابن عمر ولأبي داود وآبن ماجه من حديث عبدالله بن عمر مزفوعا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أشد على النفس . فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم
كان ابن عمر اذا سئل عن الفتيا قال : اذهب الى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها
فى عنقه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون . وقال
مجنة العالم لأدرى ، فان أخطأها فقد أصيبت مقاتله . وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس
شئ أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول انظروا الى هذا سكوتته أشد على
من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة ،
أى لا يتكلمون حتى يسألوا ، وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا ، فان اضطروا أجابوا .
وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام .

ومرّ على وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس ، فقال : هذا يقول اعرفونى .
وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسألة فكأنما يقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول :
تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا الى جهنم ؟ وقال أبو حفص النيسابورى : العالم هو الذى
يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة : من أين أجبت ؟ وكان ابراهيم التيمي إذا سئل عن
مسألة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى حتى احتجتم الى ؟ وكان أبو العالية الرياحى و ابراهيم بن
أدهم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير ، فاذا كثروا انصرفوا . وقال صلى
الله عليه وسلم ^(١) مَا أَدْرِي أَغْزِيرُ نَبِيَّ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِي أَتَبِعُ مَلْعُونٌ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِي ذُو الْقُرَيْنَيْنِ
نَبِيٌّ أَمْ لَا ^(٢) «ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خَيْرِ الْبِقَاعِ فِي الْأَرْضِ وَشَرِّهَا ، قَالَ :
لَا أَدْرِي ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، إِلَى أَنْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ خَيْرَ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ ، وَشَرُّهَا الْأَسْوَاقُ »

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع .
وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من
يقول لأدرى أكثر ممن يقول أدرى ، منهم سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل .

(١) حديث ما أدري أغزير نبي أم لا - الحديث : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة
(٢) حديث لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدري حتى نزل جبريل - الحديث : أحمد وأبو يعلى والبخاري
والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر

والفضيل بن عياض ، وبشر بن الحارث . وقال عبدالرحمن بن أنى ليلي : أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يُسأل عن حديث أو فتيا إلا وُدَّ أن أخاه كفاه ذلك . وفي لفظ آخر : كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ، ويردها الآخر إلى الآخر ، حتى تعود إلى الأول .

وروى أن أصحاب الصُّفَّة أُهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو في غاية الضر ، فأهداه إلى الآخر ، وأهداه الآخر إلى الآخر ، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً عنه . ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مسنداً عن بعضهم أنه قال : لا يفتي الناس إلا ثلاثة : أمير ، أو مأمور ، أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الإمامة والوصية ، والوديعة ، والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً ، وأشدهم دفعا لها أروعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في خمسة أشياء : قراءة القرآن ، وعمارة المساجد ، وذكر الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) «كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَالَةٌ إِلَّا ثَلَاثَةٌ : أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»

وقال تعالى : (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأي من أهل الكوفة في المنام فقال : ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأي ؟ فكره وجهه وأعرض عنه ، وقال : ما وجدناه شيئاً ، وما حمدنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر ! فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفي الحديث « إِذَا رَأَيْتُمْ ^(٢) الرَّجُلَ قَدْ أَوْتِيَ صَمْتًا وَزُهْدًا فَأَقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِنُ الْحِكْمَةَ » .

(١) حديث كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة - الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال

الترمذى حديث غريب

(٢) حديث اذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً - الحديث : ابن ماجه من حديث ابن خلد باسناد ضعيف

وقيل : العالم إما عالم وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين ، أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون

وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل درجلة : كل أحد يغترف منها ، ومثل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة منغطة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم ، وفلان متكلم ، وفلان أكثر كلاما ، وفلان أكثر عملا . وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام . وقيل : إذا كثرت العلم قلّ الكلام ، وإذا كثرت الكلام قلّ العلم . وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما وكان «قد آخى»^(٥) بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أخى : بلغنى أنك قعدت طيبا تداوى المرضى ، فانظر فإن كنت طيبا فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطيبا فالله الله لا تقتل مسلما . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل . وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثا فسئل عن تفسيرها فقال : ما عندى إلا ما رويت ، فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثا حديثا فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه ، فأخذ الصحابى كفأ من حصى ورمم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الخبر بين أظهركم ! ومنها - أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة

وسلوكة ، وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك ، من المجاهدة والمراقبة ، فإن المجاهدة تقضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلوب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تنى بذلك ، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة مع حضور القلب بصفاء الفكرة ، والاتقطاع إلى الله تعالى عما سواه ، فذلك مفتاح الإلهام ، ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة . وكم من مقتصر على المهم فى التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الأبواب !

(١) حديث مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء : البخارى من حديث أبي جعفر

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ^(١) « مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلْمَ وَرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »
وفي بعض الكتب السالفة : يأبى اسرائيل لا تقولوا : العلم في السماء من ينزل به إلى
الأرض ، ولا في تخوم الأرض من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به ، العلم مجعول
في قلوبكم ، تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين ، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين أظهر العلم في
قلوبكم حتى يعطيكم ويغمركم . وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : خرج العلماء والعباد
والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ، ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء ، ثم تلا قوله تعالى :
(وَمَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) الآية . ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور
الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم : « أُسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ
وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى : ^(٢) « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ
يَتَقَرَّبُ إِلَى بِلْوَاتِ الْوَأَفَلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ » الحديث . فكم
من معان دقيقة من أسرار القراء تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب
التفسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين ، وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على
المفسرين استحسونه ، وعلموا أن ذلك من تبهات القلوب الزكية ، وألطف الله تعالى بالهمم
العالية المتوجهة إليه ، وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب ،
فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه ، وإنما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق منه ،
وبحسب ما وفق له من حسن العمل

وفي وصف هؤلاء العلماء قال على رضي الله عنه في حديث طويل : « القلوب أوعية وخيرها
أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع لكل
ناعم ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من
المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على الانفاق والمال ينقصه الانفاق ،
والعلم دين يدان به ، تكتسب به الطاعة في حياته ، وجميل الأحدثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال

(١) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم : أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه

(٢) حديث لا يزال العبد يتقرب إلى بالوافل حتى أحبه فإذا أحبته كت له سمعا وبصرا : متفق عليه من
حديث أبي هريرة بلفظ كت سمعه وبصره . وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف

محكوم عليه ، ومنفعة المبال تزول بزواله ، مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر . ثم تنفس الصعداء ، وقال : هاه ! إن ها هنا علما جماً لو وجدت له حملة ، بل أجد طالباً غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ، ويستطيل بنعم الله على أوليائه ، ويستظهر بحجته على خلقه ، أو منقاداً لأهل الحق لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ، لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك ، أو منهوماً باللذات سلس القياد في طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه ، أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة ، اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ، ثم لا تحلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهر مكشوف ، وإما خائف مقهور ، لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته ؛ وكم وأين أولئك هم الأفلون عدداً ، الأعظمون قدرا ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلنوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه ، وأمناءه وعماله في أرضه ، والدعاة إلى دينه . ثم بكى وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم !!

فهذا الذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة ، وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة

ومنها . أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، فإن اليقين هو رأس مال الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَلْيَقِينَ الْإِيمَانُ كُلُّهُ » فلا بد من تعلم علم اليقين ، أغنى أوائله ، ثم يفتح للقلب طريقه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ » ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين ، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم ، وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا مِنْ آدَمِيٍّ

(١) حديث اليقين الايمان كله : البيهقي في الرهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث تعلموا اليقين : أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسل وهو معضل ورواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان

(٣) حديث قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب : الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس باسناد مظلم

إِلَّا وَلَهُ ذُنُوبٌ» ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم ، فتكفر ذنوبه ، ويبقى له فضل يدخل به الجنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) «إِنَّ مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينَ وَعَزِيْمَةَ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ مَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ» . وفي وصية لقمان لابنه : يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه

وقال يحيى بن معاذ : إن للتوحيد نورا ، وللشرك نارا ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين . وأراد به اليقين . وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات فان قلت : فامعنى اليقين ، وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه ، فان مالاتفهم صورته لا يمكن طلبه ؟

فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين : أما النظائر والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ له أربع مقامات : الأول - أن يعتدل التصديق والتكذيب ، ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يعاقبه أم لا وهو مجهول الحال عندك ، فان نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي ، بل يستوى عندك إمكان الأمرين ، فيسمى هذا شكاً

الثاني - أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان تقيضه ، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فان نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب ، وذلك لظهور علامات الصلاح ، ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريته ، فهذا التجوز مساو لذلك الميل ، ولكنه غير دافع رجحانه . فهذه الحالة تسمى ظناً

الثالث - أن تميل النفس إلى التصديق بشئ بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة ، إذ لو أحسن صاحب

(١) حديث من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر - الحديث : لم أقف له على أصل وروى ابن عبد البر من

حديث معاذ ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم - الحديث

هذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجويز اتسمت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقادا مقاربا لليقين، وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها، إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نقر عن قبوله

الرابع - المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا عند هؤلاء. ومثاله أنه إذا قيل للعافل: هل في الوجود شيء هو قديم؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهية، لأن القديم غير محسوس، لا كالشمس والقمر، فانه يصدق بوجودهما بالحوس، وليس العلم بوجود شيء قديم أزلي ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، بل مثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فان هذا أيضا ضروري، فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهية. ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه، وذلك هو الاعتقاد، وهو حال جميع العوام. ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له: إن لم يكن في الوجود قديم فالوجودات كلها حادثة، فان كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمودى الى المحال محال، فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة، لأن الأقسام ثلاثة: وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة؛ أو كلها حادثة، أو بعضها قديمة وبعضها حادثة، فان كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم، وإن كان الكل حادثا فهو محال، إذ يؤدي الى حدوث بغير سبب، فيثبت القسم الثالث أو الأول، وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء، سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل، كالعلم باستحالة حادث بلا سبب، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل، أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك. فكل علم لا شك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء، وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف، إذ لا تفاوت في نفي الشك.

الاصطلاح الثاني - اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء، وهو أن لا يلتفت فيه الى اعتبار التجويز والشك، بل الى استيلائه وغلبته على العقل، حتى يقال: فلان ضعيف اليقين

بالموت مع أنه لاشك فيه ، ويقال : فلان قوى اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه . فهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجوز والمنع ، سمي ذلك يقينا . ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ، ولا إلى الاستعداد له ، وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعا لغيره ، فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين . ولذلك قال بعضهم : ما رأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت . وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة . ونحن إنما أردنا بقولنا : إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا ، وهو نفي الشك ، ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها

فاذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام ، بالقوة والضعف ، والكثرة والقلّة ، والخفاء والجلاء ، فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني ، وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب ، ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لا تنتهي ، وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني . وأما التفاوت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضا ، أما فيما يتطرق إليه التجوز فلا ينكر ، أعني الاصطلاح الثاني ، وفيما انتفى الشك أيضا عنه لاسبيل إلى إنكاره ، فانك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلا ، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك في الأمرين جميعا ، اذ مستندهما جميعا التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني ، لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة ، فانه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علما من فلان ، أي معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين في جميع ماورد الشرع به ، وقد يكون قوى اليقين في بعضه

فان قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه ، وكثرته وقلته ، وجلائه وخفائه ، بمعنى نفي

الشك ، أو بمعنى الاستيلاء على القلب ، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه، وفيماذا يطلب اليقين، فاني ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين، فان اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة، ومتعلقة بالمعلومات التي وردت بها الشرائع، فلا مطمع في إحصائها، ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها :

فن ذلك التوحيد : وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لأحكامها، فالصدق بهذا موقن، فان انتفى عن قلبه مع الايمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين، فان غلب على قلبه مع الايمان غلبة أزالته عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، ونزل الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يفض علىهما، بل يراها آلتين مسخريتين واسطتين، فقد صار موقنا بالمعنى الثاني، وهو الأشرف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهي مسخرات بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب، وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل، استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم، وصار موقنا بريثا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق . فهذا أحد أبواب اليقين ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ، واليقين بأن ذلك يأتيه ، وأن ما قدر له سيساق اليه . ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجللا في الطلب ، ولم يشتد حرصه وشره وتأسفه على ما فاتته ، وأثمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة

ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وهو اليقين بالثواب والعقاب ، حتى يرى نسبة الطاعات الى الثواب كنسبة الخبز الى الشعير ، ونسبة المعاصي الى العقاب كنسبة السموم والأفاعي الى الهلاك ، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبا للشبع فيحفظ قليلا وكثيره ، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلا وكثيرها ، وكما يمتنع قليل السموم وكثيرها ، فكذلك يمتنع المعاصي قليلا وكثيرها وصغيرها وكبيرها . فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين ، أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون .

وثمره هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات، والمبالغة في التقوى، والتحرز عن كل السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال، ومشاهد له واجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك، فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عز يزنيختص به الصديقون. وثمرته أن يكون الانسان في خلوته متأدبا في جميع أحواله، كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر اليه، فانه لا يزال مطرقا متأدبا في جميع أعماله، متماسكا محتززا عن كل حركة تخالف هيئة الأدب، ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة، إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريره كما يطلع الخلق على ظاهره، فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار، والذل والاستكانة والخضوع، وجملة من الأخلاق الحمودة. وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة، فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة. وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها. وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأشجار المتفرعة من الأغصان. فاليقين هو الأصل والأساس، وله مجار وأبواب أكثر مما عدهناه. وسيأتي ذلك في ربيع المنجيات، إن شاء الله تعالى. وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن

ومنها - أن يكون حزينا منكسرا مطرقا صامتا، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته. لا ينظر اليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى، وكانت صورته دليلا على عمله، فالجواد عينه مرآته، وعلماء الآخرة يعرفون بسياهم في السكينة والذلة والتواضع. وقد قيل: ما ألبس الله عبدا ألبسة أحسن من خشوع في سكينة، فهي لبسة الأنبياء، وسيا الصالحين والصديقين والعلماء

وأما التهافت في الكلام والتشدد، والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر، والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به. وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله: عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله، وهم المفتون في الحلال والحرام، وهذا العلم لا يورث الخشية؛ وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين؛ وعالم بالله تعالى وبأمر الله

تعالى وبأيام الله تعالى ، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم . وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة . فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه

وقال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حملا وتواضعا وحسن خلق ورققا ؛ فذلك هو العلم النافع . وفى الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفى الخبر ^(١) « إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَيَكُونُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ ، أَبْدَانُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَقُلُوبُهُمْ فِي السَّمَاءِ ، أَرْوَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَعُقُولُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، يَتَمَشُّونَ بِالسَّكِينَةِ ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِالْوَسِيلَةِ » . وقال الحسن : الحلم وزير العلم ، والرفق أبوه ، والتواضع سر باله

وقال بشر بن الحارث : من طلب الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى يفضيه فانه ممقوت في السماء والأرض . ويروى في الاسرائيليات أن حكما صنف ثلاثمائة وستين مصنفا في الحكمة حتى وصف بالحكيم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان ملأت الأرض نفاقا ولم تردني من ذلك بشيء وإنى لأقبل من نفاقك شيئا . فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة ومشى في الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع في نفسه ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له : الآن وفقت لرضاي وحكى الأزعاعى رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول : ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعبد بالله منه ؛ وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمتقهم وهم أحق بالمتى من ذلك الشرطى . وروى أنه ^(٢) « قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ

(١) حديث إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه

الحديث : الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان

(٢) حديث قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله

الحديث : لم أجده هكذا بطوله وفي زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسل : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل قال أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى . وللدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسل ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خيرا الخير خيار العلماء . وقد تقدم

اجْتَنَابُ الْمَحَارِمِ، وَلَا يَزَالُ فُوكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى . قِيلَ : فَأَيُّ الْأَصْحَابِ خَيْرٌ؟
 قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صَاحِبٌ إِنْ ذَكَرْتَ اللَّهَ أَعَانَكَ ، وَإِنْ نَسِيْتَهُ ذَكَرَكَ . قِيلَ : فَأَيُّ
 الْأَصْحَابِ شَرٌّ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صَاحِبٌ إِنْ نَسِيْتَ لَمْ يَذْكُرْكَ ، وَإِنْ ذَكَرْتَ لَمْ
 يُعْنِكَ . قِيلَ : فَأَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ : أَشَدُّهُمْ لِلَّهِ خَشْيَةً . قِيلَ : فَأَخْبِرْنَا بِخَيْرِنَا
 بُحَالِسِهِمْ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ . قِيلَ : فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ :
 اللَّهُمَّ غَفِرًا . قَالُوا أَخْبِرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا »

وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ أَمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ فِكْرًا فِي الدُّنْيَا ،
 وَأَكْثَرَ النَّاسِ ضِجْكًَا فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُهُمْ بُكَاءًا فِي الدُّنْيَا ، وَأَشَدُّ النَّاسِ فَرَحًا فِي الْآخِرَةِ
 أَطْوَلُهُمْ حُزْنًا فِي الدُّنْيَا »

وقال على رضي الله عنه في خطبة له : ذمتي رهينة وأنا به زعيم ، إنه لا يهيج على التقوى زرع
 قوم ، ولا يظلم على الهدى سبغ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض
 الخلق إلى الله تعالى رجل قشّ علما أغار به في أغباش الفتنة ، سمّاه أشباه له من الناس وأرداهم
 علما ، ولم يمش في العلم يوما سالما ، بكر واستكثر ، فاقل منه وكفى خير مما كثر وألهى ، حتى
 إذا ارتوى من ماء آجن ، وأكثر من غير طائل ، جلس للناس معاملا لتخليص ما التبس على
 غيره ، فإن نزلت به إحدى المهمات هيا لها من رأيه حشو الرأي ، فهو من قطع الشبهات في
 مثل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب ، ركّاب جهالات ، خباط عشوات ، لا يعتذر
 مما لا يعلم فيسلم ، ولا يعرض على العلم بضرر قاطع فيغنم ، تبكي منه الدماء ، وتستحل بقضائه
 الفروج الحرام ، لا ملء والله بإصدار ما ورد عليه ، ولا هو أهل لما فوض إليه ، أولئك الذين
 حلت عليهم المشلات ، وحققت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال على رضي الله عنه :
 إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب

وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحكة مَجَّ من العلم محبة . وقيل : إذا جمع المعلم

(١) حديث إن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم خوفاً في الدنيا الحديث : لم أجد له أصلاً

ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم : العقل ، والأدب ، وحسن الفهم . وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة . وقال ابن عمر رضي الله عنهما ^(١) « لَقَدْ عَشْنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَإِنْ أَحَدَنَا يُؤْتِي الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَأَمْرَهَا وَزَوَاجِرَهَا ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يُؤْتِي أَحَدَهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتَمَتِهِ لَا يَذَرِي مَا أَمَرَهُ وَمَا زَجَرَهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ ، يَنْشُرُهُ تَرَدُّدُ الْقَلِّ » وفي خبر آخر بمثل معناه ^(٢) « كُنَّا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتَيْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَسَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يُؤْتُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ وَيُضَيِّعُونَ حُدُودَهُ وَحُقُوقَهُ يَقُولُونَ قَرَأْنَا فَمَنْ أَقْرَأَ مِنَّا وَعَلِمْنَا فَمَنْ أَعْلَمَ مِنَّا ؟ فَذَلِكَ حَظُّهُمْ » وفي لفظ آخر : « أُولَئِكَ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ »

وقيل : خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهو الزهد ، فأما الخشية فن قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . وأما الخشوع فن قوله تعالى : (خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) . وأما التواضع فن قوله تعالى : (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) . وأما حسن الخلق فن قوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) وأما الزهد فن قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ شَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ولما تلا ^(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

(١) حديث ابن عمر لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن - الحديث : الحاكم

وصححه على شرط الشيخين والبيهقي

(٢) حديث كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن - الحديث : ابن ماجه من

حديث جندب مختصراً مع اختلاف

(٣) حديث لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » الحديث

الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود

صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ) فَقِيلَ لَهُ : مَا هَذَا التَّشْرِيحُ ؟ فَقَالَ : إِنَّ النُّورَ إِذَا قُدِّفَ فِي الْقَلْبِ انْتَشَرَ لَهُ
الصُّدُورُ وَانْفَسَحَ ، قِيلَ : فَهَلْ لِدَلِّكَ مِنْ عِلَامَةٍ ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَعَمْ : التَّجَافِي عَنْ دَارِ
الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ «

ومنها - أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعمّا يفسدها ويشوش القلوب ويهيج
الوسواس ويشير الشر ، فإن أصل الدين التوقي من الشر ، ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قربية ، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان ،
وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك
مما يغلب ميسيس الحاجة إليه ، وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة

وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريمات في الحكومات والأفضية ، ويتعبون في
وضع صور تنقضى الدهور ولا تقع أبداً ، وإن وقمت فإنما تقع لغيرهم لاهم ، وإذا وقعت كان
في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلزمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، في خواطرهم
ووساوسهم وأعمالهم . وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بهم غيره النادر ، إثاراً
للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه ، وشرهاً في أن يسميه البطالون من
أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق ! وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق ، بل
يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ، ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين
وفوز المقربين ، وذلك هو الخسران المبين

ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،
وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم : اتفقت الكلمة في حقه على ذلك ، وكان أكثر
كلامه في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ، والصفات الخفية الغامضة ،
من شهوات النفس . وقد قيل له : يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟
قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن

أين أخذته؟ قال: خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) «كَانَ النَّاسُ يُسْأَلُونَ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أُسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ خَافَةً أَنْ أَقَعَ فِيهِ وَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَا يَسْقِيْنِي عِلْمُهُ». وقال مرة: «فَعَلِمْتُ أَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ» وفي لفظ آخر «كَانُوا يَقُولُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِمَنْ عَمِلَ كَذًا وَكَذَا؟ يُسْأَلُونَهُ عَنْ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَكُنْتُ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا يُفْسِدُ كَذًا وَكَذَا؟ فَلَمَّا رَأَى اسْأَلُهُ عَنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ خَصَّنِي بِهَذَا الْعِلْمِ»

وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة. وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم، ولا يخبر بأسمائهم. وكان عمر رضى الله عنه يسأله عن نفسه: هل يعلم فيه شيئا من النفاق؟ فبرأه من ذلك. وكان عمر رضى الله عنه إذا دُعِيَ إلى جنازة ليصلى عليها نظر: فإن حضر حذيفة صلى عليها، وإلا ترك. وكان يسمى صاحب السر

فالناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة، لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى. وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا، وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد، وقيل هذا تزويق المذكرين، فأين التحقيق، ويرون أن التحقيق في قادات المجادلات. ولقد صدق من قال:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطُرُقُ الْحَقِّ مُفْرَدَةٌ والسالكون طريقَ الحقِّ أفراد

لَا يَعْرِفُونَ وَلَا تُدْرَى مُقَاصِدُهُمْ فهم على مهل يمشون قُصَاد

والناس في غفلة عما يراد بهم فجلبهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم، فإن الحق مرّ، والوقوف عليه صعب، وإدراكه شديد، وطريقه مستوعر، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة، فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشارب

(١) حديث حذيفة كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر - الحديث: أخرجه مختصرا

للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت ، ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق . ولذلك قيل : إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلماً في الوعظ والتذكير ، ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة : منهم سهل التسترى ، والصبيحى ، وعبد الرحيم ، وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى ، وإلى هؤلاء عدد يسير قلماً يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص ، وما يبذل للعموم فأمره قريب

ومنها - أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره ، وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله ، وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعملهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصاً على فهم أسرارهم ، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأف صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وفعله لا بد وأن يكون اسرّ فيه ، فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال ، فانه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ، ولا يكون عالماً . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ، فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار ، ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً مقلداً ، فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ^(١) «مَنْ أَحَدٍ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه ، وقرأ على أبي بن كعب ، ثم خالفهما في الفقه والقراءة جميعاً . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والدين ، وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ منه وتترك ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال

وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن ، فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة

(١) حديث ابن عباس مامن أحد الا يؤخذ من علمه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطبرانى من

من حديثه يرفعه بلفظه من قوله : ويدع

إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليدا غير مرضي فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد ، بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين ، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة ، وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضي الله عنهم ، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب ، لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القراءة وعن التدبر والتذكر ، وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم تصحيف القرآن في مصحف ، وقالوا : كيف نفعل شيئا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخافوا اتكال الناس على المصاحف ، وقالوا : تترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم ، حتى أشار عمر رضي الله عنه وبقيّة الصحابة بكتب القرآن ، خوفا من تحاذل الناس وتكاسلهم ، وحذرا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من المتشابهات ، فأنشراح صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك ، فجمع القرآن في مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه الموطأ ، ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضي الله عنهم

وقيل : أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار ، وحروف التفسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضي الله عنهم بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن ، جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثوري .

ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام ، وكثر الخوض في الجدال ، والنوص في إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها ، فأخذ علم اليقين في الاندراست من ذلك الزمان ، فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب ، والتفتيش عن صفات النفس ومكاييد الشيطان ، وأعرض عن ذلك إلا الأقلون ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالما ، والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما ، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم ، فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضي الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم ، فاستمر عليهم اسم العلماء ، وتوارث اللقب خلف عن سلف ، وأصبح

علم الآخرة مطويا، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم : كانوا إذا قيل لهم فلان أعلم أم فلان ، يقولون: فلان أكثر علما، وفلان أكثر كلاما، فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين في قرون سالفة ، فكيف الظن بزمانك هذا؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الانكار يستهدف لنسبته إلى الجنون، فالأولى أن يشتغل الانسان بنفسه ويسكت

ومنها - أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يفرقه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم ، وليكن حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم : أكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوضايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ، أم كان في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله ، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكاييد الشيطان ، إلى غير ذلك من علوم الباطن .

واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف ، فمنهم أخذ الدين ، ولذلك قال على رضى الله عنه : خيرنا أتبعنا لهذا الدين لما قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغي أن يكثر بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الناس رأوا رأيا فيما هم فيه ليل طباعهم اليه ، ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة ، فادّعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه . ولذلك قال الحسن : محدثان أحدثا في الاسلام : رجل ذو رأى سىء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترفٌ يعبد الدنيا، لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب ، فارفضوها إلى النار ، وإن رجلا أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه ، وصاحب هوى يدعوه إلى هواه ، وقد عصمه الله تعالى منها ، يحسن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتنى آثارهم ، متعرض لأجر عظيم ، فكذلك كونوا

وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسندا^(١) أنه قال : « إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ : الْكَلَامُ

(١) حديث ابن مسعود إنما هما اثنتان الكلام والهدى سالحديث : ابن ماجه

وَأَهْدَى، فَأَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَإِنْ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنْ كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، أَلَا لَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُوا قُلُوبَكُمْ، أَلَا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، أَلَا إِنَّ الْبَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ»

وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمِ، وَجَانَبَ أَهْلَ الزَّلَالِ وَالْمَعْصِيَةِ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَوَسَّعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يَعُدَّهَا إِلَى بِدْعَةٍ»

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: حُسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل، وقال: أتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور، وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت التوقف لكثرة الشبهات. وقد صدق، فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه، هلك كما هلكوا. وقال حذيفة رضى الله عنه: أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى، وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى، وإنكم لا تزالون بخير ما عرقتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به. ولقد صدق، فإن أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة رضى الله عنهم، إذ من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها، وإنفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها، وفرش البسط الرفيعة فيها

ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسجد بدعة. وقيل إنه من محدثات الحجاج، فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا

(١) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه - الحديث: أبو نعيم من حديث الحسين ابن على بسند ضعيف والبخاري من حديث أنس أول الحديث وآخره، والطبراني والبيهقي من حديث ركب المصرى وسط الحديث وكلها ضعيفة.

وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ، ويزعمون أنه من أعظم القربات . وقد كان من المنكرات ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان

ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة ، وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب ، مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها ؛ إلى نظائر ذلك

ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أتم اليوم في زمانٍ الهوى فيه تابع للعلم ، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول : تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ، ما أقل العلم فيهم ! والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ، ولم يكن العلماء يقولون : حرام ولا حلال ، ولكن أدركتهم يقولون : مستحب ومكروه . ومعناه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب ، فأما الحرام فكان فحشه ظاهرا . وكان هشام بن عروة يقول : لا تسألوه اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فانهم قد أعدوا له جوابا ، ولكن سلوهم عن السنة فانهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لا ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق ما في نفسه . وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب ، وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا . فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري رضى الله عنه فقال : يا مروان ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست ببدعة ، إنها خير مما تعلم ، إن الناس قد كثروا فاردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير مما أعلم أبدا ، والله لأصليت وراءك اليوم ! وإنما أنكر ذلك عليه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « كَانَ يَتَوَكَّأُ فِي خُطْبَةِ الْعِيدِ وَالْأَسْتِسْقَاءِ عَلَى قَوْسٍ أَوْ عَصَا » لَا عَلَى الْمِنْبَرِ

(١) حديث كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا : الطبراني من حديث البراء

ونحوه في يوم الأضحية ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ورواه في الصغير من حديث سعد القرظ كان إذا خطب في العيدين خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا وهو عند ابن ماجه بلفظ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس - الحديث

وفي الحديث المشهور^(١) « مَنْ أَخَذَتْ فِي دِينِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . وفي خبر آخر :
 « مَنْ^(٢) غَشَّ أُمَّتِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » قيل يارسول الله : وما غش
 أمتك ؟ قال : « أَنْ يَتَدَبَّعَ بَدْعَةً يَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهَا » وقال صلى الله عليه وسلم^(٣) « إِنْ لِيهِ
 عَزٌّ وَجَلٌّ مَلَكَ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ : مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ
 تَنْلُهُ شَفَاعَتُهُ » ومثال الجاني على الدين بابداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال
 من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة ، وذلك قد يفقر له ؛
 فأما قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ماتكم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء ، وما سكوت
 عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ، ومن قصر عنه عجز ،
 ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم^(٤) « عَلَيْكُمْ بِالنَّمْطِ الْأَوْسَطِ الَّذِي
 يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْعَالِي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ النَّالِي »

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الضلالة لها حلوة في قلوب أهلها ، قال الله تعالى :
 (وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) وقال تعالى : (أَمْ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) .
 فكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة ، فهو من اللعب واللهو
 وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه
 محسورين ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء : ما نصيب منهم شيئا وقد أتعبونا ،
 فقال : إنكم لا تقدرون عليهم : قد صحبوا نبيهم ، وشهدوا تنزيل ربهم ، ولكن سيأتي بعدهم
 قوم تنالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين ، فقالوا : ما
 رأينا أعجب من هؤلاء : نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار

(١) حديث من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ : في أمرنا ما ليس
 منه . وعند أبي داود فيه

(٢) حديث من غش أمتي فعليه لعنة الله - الحديث : الدارقطني في الاثراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً
 (٣) حديث إن لله ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته :
 لم أجده له أصلاً

(٤) حديث عليكم بالنمط الأوسط - الحديث : أبو عبيد في غريب الحديث موقوفاً على علي بن أبي طالب
 ولم أجده مرفوعاً

أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ، فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم ، واتباعهم لسنة نبيهم ، ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم يقرر أعينكم بهم ، تلعبون بهم لعبا ، وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم ، إن استغفروا لم يغفر لهم ، ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات . قال : نجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع ، فاستحلوها ، واتخذوها دينا ، لا يستغفرون الله منها ، ولا يتوبون عنها ، فسلط عليهم الأعداء ، وقلدوهم أين شاءوا

فان قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك ؟
فاعلم أن أرباب القلوب يكشفون بأسرار الملكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل ورود عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة ، وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام ، وهذا أعلى الدرجات ، وهي من درجات النبوة العالية ، كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة

فاياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك ، ففيه هلك المتحلقون من العلماء ، الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول . فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى . ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء ، وكان خارجا عن الدين بالسكية . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور ، لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت ، لأنهم عندهم جهال بالله تعالى ، وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التستري رضى الله عنه : إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، واستماع كلام أهل الغفلة ، وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصنى إلى قوله ، بل ينبغي أن يتهم في كل ما يقول ، لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ، ويدفع ما لا يوافق محبوبه . ولذلك قال الله عز وجل (وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) . والعوام العصاة أسعد حالا من الجاهل بطريق الدين ، المعتقدين أنهم من العلماء ، لأن العاصي المعترف بتقصيره فيستغفر ويتوب ، وهذا الجاهل الظان أنه عالم فان ماهو مشغول به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين ، فلا يتوب ولا يستغفر ، بل لا يزال مستمرا عليه إلى الموت

وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى ، وانقطع الطمع من إصلاحهم ، فالأسلم لدى الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم ، كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه ، إن شاء الله تعالى .
ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنك بمن بقي لا يجد أحدا لا يذكر الله تعالى معه إلا كان آثماً أو كانت مذاكرته معصيةً ، وذلك أنه لا يجد أهله ؟ ولقد صدق ، فإن غفلة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة ، أو سكوت على منكر . وإن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيد . ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة ، علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ، ووسيلة إلى الشر ، فيكون هو معيناً له على ذلك ؛ ورداءاً وظهرًا ومهيئاً لأسبابه ، كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف ، وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ، ولذلك لا يرخص له في البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق .

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف . فكن أحد رجلين : إما متصفا بهذه الصفات ، أو معترفا بالتقصير مع الإقرار به . وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن بدلت آلة الدنيا بالدين ، وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراغبين ، وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين . نوذ بالله من خدع الشيطان ، فيها هلك الجهور . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تنفك الحياة الدنيا ، ولا يغرر بالله الغرور !

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره ، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل . والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين ، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟

أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل ، حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدّها ضراوة وأفواها سطوة إذا رأى صورة الانسان احتشمه وهابه ، لشعوره باستيلانه عليه ، لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « الشَّيْخُ فِي قُوَّةٍ كَأَنَّيَّ فِي أُمَّتِهِ » وليس ذلك لكثرة ماله ، ولا لكبر شخصه ، ولا لزيادة قوته ، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله ، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة ، هابوه ، وراى لهم ما كان يتلأأ على ديباجة وجهه من نور النبوة ، وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل . فشرف العقل مدرك بالضرورة . وإنما القصد أن نورد ماوردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه ، وقد سماه الله نورا في قوله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) . وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة ، فقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) . وقال سبحانه : (أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) . وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل ، كقوله : (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَغْلِقُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالْعَقْلِ تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَمَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يُنْجِدُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمٌ الْمُنْظَرُ خَيْرٌ أَلْظَرِ دَنَى الْمَنْزِلَةِ رَثَّ الْهَيْئَةِ ، وَإِنْ أَلْجَاهِلُ مَنْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ الْمُنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطَرِ شَرِيفَ الْمَنْزِلَةِ حَسَنَ الْهَيْئَةِ فَصِيحًا نَطُوقًا ، فَالْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَصَاهُ ، وَلَا تَغْتَرَّ

﴿ الباب السابع في العقل ﴾

(١) حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته : ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف

(٢) حديث بأيها الناس اغلقوا عن ربكم وتواصوا بالعقل - الحديث : داود بن المجبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود

بَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِنَّا كُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَذْبِرْ فَأَذْبَرَ ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَى مِنْكَ ، بِكَ أَخَذُ ، وَبِكَ أُعْطِي ، وَبِكَ أُثِيبُ ، وَبِكَ أَعَاقِبُ » .
فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟

فاعلم أن هذا من علم المكاشفة ، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة . وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضي الله عنه ^(٢) قال « أَتْنِي قَوْمٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَالَعُوا ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَيْفَ عَقْلُ الرَّجُلِ ؟ فَقَالُوا : نُخْبِرُكَ عَنْ أَجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَأَصْنَافِ الْخَيْرِ وَتَسْأَلُنَا عَنْ عَقْلِهِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الْأَئِمَّةَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرُ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ ، وَإِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبَادُ غَدًا فِي الدَّرَجَاتِ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ » . وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا أَكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلِ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى وَيُرُدُّهُ عَنْ زُدًى ، وَمَا تَمَّ إِيمَانُ عَبْدٍ وَلَا اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّى يَكْمَلَ عَقْلُهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنْ لَرَجُلٍ لِيَذْرَكَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةُ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ، وَلَا يَتِمُّ لِرَجُلٍ حُسْنُ خُلُقِهِ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ فَمِنْدَ ذَلِكَ تَمَّ إِيمَانُهُ وَأَطَاعَ رَبَّهُ وَعَصَى عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ »

(١) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل - الحديث : الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين

(٢) حديث أنس رضي الله عنه قال : أتني قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا في الثناء فقال : كيف عقل الرجل

الحديث : ابن المجرى في العقل بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً
(٣) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل - الحديث : ابن المجرى في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة

(٤) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله
الحديث : ابن المجرى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به . والحديث عند الترمذي مختصر دون قوله ولا يتم ، من حديث عائشة وصححه

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ ، فَيَقْدِرُ عَقْلُهُ تَكُونُ عِبَادَتُهُ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفُجَّارِ فِي النَّارِ : «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ» . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لقيم الداري ^(٢) : « مَا السُّؤْدُودُ فِيكُمْ ؟ قَالَ الْعَقْلُ . قَالَ : صَدَقْتَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا سَأَلْتُكَ فَقَالَ كَمَا قُلْتَ ، ثُمَّ قَالَ : سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا السُّؤْدُودُ فَقَالَ : الْعَقْلُ » وعن البراء بن عازب رضى الله عنه ^(٣) قال « كَثُرَتْ الْمَسَائِلُ يَوْمًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلَالَةً وَمَعْرِفَةً بِأُلْحَاجَةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلًا . »

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال ^(٤) « لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ : فَلَانٌ أَشْجَعُ مِنْ فَلَانٍ وَفُلَانٌ أَبْلَى مَا لَمْ يُبَلِّ فَلَانٌ وَنَحْوُ هَذَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا هَذَا فَلَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى قَدَرٍ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ ، وَكَانَتْ نُصْرَتُهُمْ وَيَتَتُّهُمْ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ فَأَصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ عَلَى مَنَازِلِ شَيْءٍ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اقْتَسَمُوا الْمَنَازِلَ عَلَى قَدَرِ نِيَّاتِهِمْ وَقَدَرِ عُقُولِهِمْ . »

وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال ^(٥) : « جَدُّ الْمَلَائِكَةِ وَاجْتَهَدُوا

(١) حديث أبي سعيد لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله - الحديث : ابن الجبر وعنه الحارث

(٢) حديث عمر أنه قال لقيم الداري ما السؤدد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم - الحديث : ابن الجبر وعنه الحارث

(٣) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء

مطية - الحديث : ابن الجبر وعنه الحارث

(٤) حديث أبي هريرة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أُحُدٍ سمع الناس يقولون كان

فلان أشجع من فلان - الحديث : ابن الجبر

(٥) حديث البراء بن عازب جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل - الحديث ابن الجبر وكذلك وعنه

الحارث في مسنده ورواه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة

غير البراء وهو بالسند الذي رواه ابن الجبر

فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعَقْلِ ، وَجَدَّ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ فَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْفَرُهُمْ عَقْلًا . وعن عائشة رضي الله عنها قالت ^(١) « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِمَ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا ؟ قَالَ : بِالْعَقْلِ ، قُلْتُ : وَفِي الْآخِرَةِ ؟ قَالَ : بِالْعَقْلِ ، قُلْتُ أَلَيْسَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ : وَهَلْ عَمِلُوا إِلَّا بِقَدْرِ مَا أُعْطَاهُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَقْلِ ؟ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ »

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَوَعْدَةٌ ، وَإِنَّ آلَةَ الْمُؤْمِنِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الدِّينِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ الْعِبَادِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاجٍ وَدَاجِي الْعَابِدِينَ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ الْمُجْتَهِدِينَ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ قِيمٌ وَقِيمُ بُيُوتِ الصَّدِيقِينَ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الْآخِرَةِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَقْبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُذَكَّرُ بِهِ وَعَقْبُ الصَّدِيقِينَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ وَيُذَكَّرُونَ بِهِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ سَفَرٍ فُسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَقْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) : « إِنَّ أَحَبَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ نَصَبَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَصَحَ لِعِبَادِهِ وَكَمَلَ عَقْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ ، وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « أَتَمُّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا ، وَإِنْ كَانَ أَقْلَكُمْ تَطَوُّعًا »

(١) حديث عائشة قلت يا رسول الله بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل - الحديث ابن المحبر والترمذي الحكيم في النوادر نحوه

(٢) حديث ابن عباس لكل شيء آلة واعدة وإن آلة المؤمن العقل - الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث

(٣) حديث أن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله - الحديث ابن المحبر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف

(٤) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا - الحديث: ابن المحبر من حديث أبي قتادة

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته ، وذهل الأكترون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة ، فصار ذلك سبب اختلافهم والحق الكاشف للغطاء فيه : أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ، كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة ، وما يجري هذا المجرى ، فلا ينبغي أن يطلب لجميع أسماه حد واحد ، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه

فالأول — الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم ، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية ، وتدير الصناعات الخفية الفكرية ، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل : إنه غريزة يتهيا بها إدراك العلوم النظرية ، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الأشياء . ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل الى مجرد العلوم الضرورية ، فان الغافل عن العلوم والنائم بسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة بها يتهيا الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية ، فكذلك العقل غريزة بها يتهيا بعض الحيوانات للعلوم النظرية . ولو جار أن يسوى بين الانسان والحمار في الغريزة والادراكات الحسية ، فيقال : لافرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء المادة بخلق في الانسان علوما وليس يخلقها في الحمار والبهائم ، لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد في الحياة ، ويقال : لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة ، فانه لو قدر الحمار جمادا ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد ، وكما يجب أن يقال : لم يكن مفارقتة للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة ، فكذا مفارقة الانسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل ، وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة ، وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية . فنسبة هذه الغريزة الى العلوم كنسبة العين الى الرؤية ، ونسبة القراءان والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها الى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس الى البصر ، فكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة

الثاني - هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات : كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد ، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . وهو أيضا صحيح في نفسه ، لأن هذه العلوم موجودة ، وتسميتها عقلا ظاهرا ، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال : لا موجود إلا هذه العلوم

الثالث - علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فإن من حنكته التجارب وهذبه المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا

الرابع - أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها ، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا ، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة ، وهذه أيضا من خواص الانسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان . فالأول هو الأس والسنخ والمنبع ، والثاني هو الفرع الأقرب اليه ، والثالث فرع الأول والثاني ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب ، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع ، والأخيران بالاكتساب ، ولذلك قال علي كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقليين فطبع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : ^(١) « مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ الْعَقْلِ » والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ بِأَبْوَابِ الْبِرِّ »

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل : الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة

(٢) حديث إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك : أبو نعيم في الحلية من حديث علي إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والتقرب . وإسناده ضعيف

وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَقَرَّبَ أَنْتَ بِعَقْلِكَ « وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بى
الرداء رضى الله عنه ^(١) » أَزْدَدَ عَقْلًا تَزْدَدُ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا » فَقَالَ : يَا بِي أَنْتَ وَأُمِّي وَكَيْفَ لِي
بِذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « اجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَدِّ فَرَائِضَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ تَكُنْ عَاقِلًا ، وَأَعْمَلْ
بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ تَزْدَدُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَامَةً وَتَنَلُ فِي آجِلِ الْآخِرَةِ بِهَا مِنْ
رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْبَ وَالْعِزَّ » وعن سعيد بن المسيب ^(٢) « أَنَّ عُمَرَ وَابْنَ كَعْبٍ وَأَبَا
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ
أَعْلَمُ النَّاسِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْعَاقِلُ . قَالُوا : فَمَنْ أَعْبَدُ النَّاسِ ؟ قَالَ : الْعَاقِلُ . قَالُوا :
فَمَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ ؟ قَالَ : الْعَاقِلُ . قَالُوا : أَلَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ تَمَّتْ مُرُوَّتُهُ وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ
وَجَادَتْ كَفُّهُ وَعَظُمَتْ مَنَزِلَتُهُ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » إِنْ الْعَاقِلُ هُوَ الْمُتَّقِي وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا خَسِيسًا ذَلِيلًا ،
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ ^(٣) « إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ
وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ » .

ويشبه أن يكون أصل الاسم في أصل اللغة لتلك الفريزة وكذا في الاستعمال، وإنما أطلق
على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته، فيقال : العلم هو الخشية، والعالم من
يخشى الله تعالى، فإن الخشية ثمرة العلم، فتكون كالمجاز لغير تلك الفريزة، ولكن ليس الغرض
البحث عن اللغة. والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة، والاسم يطلق على جميعها،
ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول. والصحيح وجودها، بل هي الأصل، وهذه
العلوم كأنها مضمنة في تلك الفريزة بالفطرة، ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب

(١) حديث ازداد عقلا تزداد من ربك قربا - الحديث : قاله لأبي الدرداء : ابن الجبر ومن طريقه الحارث

ابن أبي أسامة والترمذي الحكيم في النوادر .

(٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل - الحديث : ابن الجبر

(٣) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته : ابن الجبر من حديث سعيد بن

المسيب مرسل وفيه قصة

يخرجها الى الوجود ، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج ، وكأنها مستكنة فيها فظهرت . ومثاله الماء في الأرض ، فانه يظهر بحفر البئر ، ويجتمع ويتميز بالحس ، لا بأن يساق اليها شيء جديد . وكذلك الدهن في اللوز ، وماء الورد في الورد ، ولذلك قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة ، فانهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص الى مقر والى جاحد ، ولذلك قال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) معناه : إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) أى كل آدمى فطر على الايمان بالله عز وجل ، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه ، أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للادراك

ثم لما كان الايمان مركزا في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض ففسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة ففسىها بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (وَلَيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) . وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد ، فكان التذكير ضربان : أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود ، والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ، ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان ، ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات ، ويتعسف في تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعا من التعسفات ، ويتخيل اليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات ، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر اليها بعين الاستحقار ، ويعتقد فيها التهافت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل دارا فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة في الدار فيقول : ما هذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له إنها في مواضعها وإنما الخلل فى بصرك . فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم ، إذ النفس كالفرس ، والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضرم من عمى الفرس .

ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية . وسمى ضده عمى ، فقال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وقال تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلُ سَبِيلًا) . وهذه الأور التي كشفت الأبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة ، وسمى الكل رؤية .

وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة ، لم يعلق به من الدين إلا قشوره ، وأمثله دون لبابه وحقائقه . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها

بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قلّ تحصيله ، بل الأولى والأهم المبادرة الى التصريح بالحق

والحق الصريح فيه أن يقال : إن التفاوت يتطرق الى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، فان من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم في مكانين ، وكون الشيء الواحد قديما حادثا ، وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكا محققا من غير شك . وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها

أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات ، فلا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة ، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ، ولكن غير مقصور عليه ، فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، وإذا كبر وتم عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا ، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعروف لغائلة تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة ، وقد لا يقدر من يساويه في العقل على ذلك إذا لم يكن

طيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ، ولكن اذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد ، فيكون الخوف جندا للعقل وُعْدَة له في قمع الشهوات وكسرها ، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوّة عامه بضرر المعاصي ، وأعنى به العالم الحقيق دون أرباب الطيالة وأصحاب الهذيان . فان كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع الى تفاوت العقل ، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا ، فانه يقوى غريزة العقل ، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية اليه . وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل ، فانها اذا قويت كان قمعها للشهوة لاحالة أشد

وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر ، فانهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ، ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة ، وإما تفاوتاً في الممارسة . فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة ، فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده ، فانه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه . ومبادئ إشراقه عند سن التمييز ، ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة . ومثاله نور الصبح ، فان أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه ، ثم يتدرج إلى الزيادة ، إلى أن يكمل بطولوع قرص الشمس

وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر ، والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر ، بل سنة الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد ، حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغته بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج ، وكذلك جميع القوى والصفات . ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربة العقل

ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية ، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ، ولما انقسموا الى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم ، والى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة ، والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ، كما قال تعالى : (يَكَادُ زَيْبُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام ، إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ، ويعبر عن ذلك بالالهام . وعن مثله

عَبَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ ^(١) «إِنَّ رُوحَ الْقُدُّسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي: أَحْبَبْتُ مَنْ أَحْبَبْتِ فَأَيْنَكَ مُفَارِقُهُ، وَعَشَّ مَا شِئْتَ فَأَيْنَكَ مَيِّتٌ، وَأَعْمَلُ مَا شِئْتَ فَأَيْنَكَ حَزَنِي بِهِ». وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن، ومشاهدة الملك بحاسة البصر، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروع. ودرجات الوحي كثيرة، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة، بل هو من علم المكاشفة

ولا تظن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي، إذ لا يبعد أن يعرف الطيب المريض درجات الصحة، ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا

وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم، وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم، وإلى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه، كما تنقسم الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيوننا، وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات، وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لا اختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل. ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت ^(٢) : يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الْعَرْشِ؟ قَالَ نَعَمْ: الْعَقْلُ؛ قَالُوا وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدَرِهِ؟ قَالَ هِيَ هَاتِ لَا يُحَاطُ بِعِلْمِهِ، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ الرَّمْلِ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنِّي خَلَقْتُ الْعَقْلَ أَصْنَافًا شَتَّى كَعَدَدِ الرَّمْلِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ الثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرْقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»

(١) ان روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك مفارقة - الحديث: الشيرازي في الألقاب من

حديث سهل بن سعد نحوه والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف

(٢) حديث ابن سلام سئل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش

وأن الملائكة قالت يا رب هل خلقت شيئا أعظم من العرش - الحديث: ابن حجر من

حديث أنس بن مالك والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟
 فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمنافضات
 والإلزامات ، وهو صنعة الكلام ، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية ،
 إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب ، فذموا العقل
 والمعقول ، وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق
 رساله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه ؟ وإن ذم فما الذي بعده يحمده ؟ فإن كان
 المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون
 الشرع أيضا مذموما . ولا يلتفت إلى من يقول : إنه يدرك بعين اليقين ونور الايمان لا بالعقل ،
 فانا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الايمان ، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي
 عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور

وأكثر هذه التخييلات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فنخبطوا
 فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ . فهذا القدر كاف في بيان العقل . والله أعلم
 تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من
 أهل الأرض والسماء ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد . والحمد لله وحده أو لا آخراً

كتاب قواعد العتائد

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فتقول وبالله التوفيق :

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، ذى العرش المجيد، والبطش الشديد، الهادى صفوة العبيد، الى المنهج الرشيد، والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم الى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرف بإمام أنه فى ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ند له، وأنه واحد قديم لأول له، أزلى لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدى لا نهاية له، فيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال، بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شىء عليم

التنزيه :

وأنه ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام، لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بمرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثل موجود، ليس كمثل شىء ولا هو مثل شىء، وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات، وأنه

مستو على العرش على الوجه الذى قاله ، وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزلها عن المماساة والاستقرار ،
 والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ،
 ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى ، فوقيةً
 لا تزيد قربا إلى العرش والسماء ، كما لا تزيد بُعدا عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات
 عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من
 كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد ، وهو على كل شىء شهيد ، إذ لا يماثل
 قربهُ قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ،
 تعالى عن أن يحويه مكان ، كما تقدر عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان
 والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس فى ذاته سواء ،
 ولا فى سواء ذاته ، وأنه مقدس عن التغير والانتقال ، لا تحله الحوادث ، ولا تعثره
 العوارض ، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزلها عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنيا عن
 زيادة الاستكمال ، وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئى الذات بالأبصار ، نعمته منه
 واطفا بالأبرار فى دار القرار ، وإتماماً منه للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم

الحياة والقدرة :

وأنه تعالى حى قادر ، جبار قاهر ، لا يعثره قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ،
 ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو الملك والمالكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان
 والقهر ، والخلق والأمر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخالق مقهورون فى قبضته ، وأنه
 المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالإيجاد والابداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم
 وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريح الأمور ، لا تحصى
 مقدوراته ، ولا تنهاى معلوماته

العلم :

وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، وأنه
 عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم ديب النملة السوداء ، على

الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذرّ في جوّ الهواء ، ويعلم السر وأخفى ،
ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى لم يزل
موصوفاً به في أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال

الإرادة :

وأنه تعالى مرید للكائنات مدبر للحادثات ، فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو
كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضرر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ،
زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقدره ، وحكمته ومشيتته ، فما شاء كان وما لم
يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفظة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدى المعيد ، الفعال
لما يريد ، لا رادّ لأمره ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لسبده عن معصيته إلا بتوفيقه
ورحمته ، ولا قوّة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته ، فلا اجتمع الإنس والجن والملائكة
والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيتته لحزوا عن ذلك ،
وأن إرادته قاعة بذاته في جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفاً بها ، مریداً في أزله لوجود
الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراد في أزله من غير تقدّم ولا تأخر ،
بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تنير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ، ولا
تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن

السمع والبصر :

وأنه تعالى سميع بصير بسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب
عن رؤيته مرئى وإن دقّ ، ولا يحجب سمعه بسد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير
حدقة وأبفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ،
ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق •

الكلام :

وأنه تعالى متكلم آمرّ ناهٍ ، واعدّ متوعد ، بكلام أزلى قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام
الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع

باطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القراءان والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وأن القراءان مقروء بالأسنة ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى ، لا يقبل الانفصال والافتراق ، بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض ، وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلاً ، بالحياة ، والقدرة ، والعلم ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، لا بمجرد الذات
الأفعال :

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله ، وفائض من عدله ، على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم في أفعاله ، عادل في أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فانه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظالماً ، فكل ما سواه من إنس وجن ، وملك وشيطان وسما وأرض وحيوان ، ونبات وجماد وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس - حادث اخترعه بقدرته بعد عدم اختراعه ، وأنشأه إنشاءً بعد أن لم يكن شيئاً ، إذ كان في الأزل موجوداً وحده ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته ، وتحقيقاً لما سبق من إرادته ، ولما حق في الأزل من كلمته ، لا لافتقاره اليه وحاجته ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان ، إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويتلهم بضروب الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ، ولم يكن منه قبيحاً ولا ظالماً ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ، وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على السنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا أمره ونهيه ووعدوه ووعدوه ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به

معنى الكلمة الثانية وهى الشهادة للرسول بالرسالة

وأنة بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم برسالاته إلى كافة العرب والعجم والجن والانس، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها، وفضله على سائر الأنبياء، وجعله سيد البشر، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد، وهو قول لا إله إلا الله مالم تقترب بها شهادة الرسول وهو قولك. محمد رسول الله، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، وأنة لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، وأوله سؤال^(١) مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وَهُمَا شَخْصَانِ مُهَيَّيَانِ هَاتِلَانِ يُقْعِدَانِ الْعَبْدَ فِي قَبْرِهِ سَوِيًّا ذَا رُوحٍ وَجَسَدٍ فَيَسْأَلَانِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ، وَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهُمَا^(٢) فَتَانَا الْقَبْرِ^(٣)، وَسُؤَالُهُمَا أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ^(٤) بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ وَحُكْمُهُ عَدْلٌ عَلَى الْجَسْمِ وَالرُّوحِ عَلَى مَا يَشَاءُ^(٥)، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْمِيزَانِ ذِي الْكَفَتَيْنِ وَاللِّسَانِ وَصِفَتُهُ فِي الْعِظَمِ أَنَّهُ مِثْلُ طَبَقَاتِ

(١) حديث سؤال منكر ونكير : الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أبي هريرة إذا قبر الميت أو قال أحكم أتاها ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير . وفي الصحيحين من حديث أنس أن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع ناله أتاها ملكان فيقعدانه - الحديث

(٢) حديث انهما فتانا القبر : أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر : أترد علينا عقولنا - الحديث

(٣) حديث ان سؤالهما أول فتنة بعد الموت : لم أجده

(٤) حديث عذاب القبر : أخرجه من حديث عائشة انكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم - الحديث . ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر

(٥) حديث الايمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم انه مثل طباق السموات والارض : البيهقي في العث من حديث عمر قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والناو والميزان - الحديث . وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبي داود من حديث عائشة أما في ثلاثه مواطن لا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أينخف ميزانه أم يثقل ، زاد ابن مردويه في تفسيره قالت عائشة أى حبي قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء ويوضع في هذه الشيء فيرجح احدهما وتخف الاخرى والترمذي وحسنه من حديث أنس واطلبنى عند الميزان . ومن حديث عبد الله بن عمر في حديث البطاقة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة - الحديث . وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، توزن فيه الأعمال بقدره الله تعالى ، والصنـج يومئذ مشاقيل الذر والخردل ، تحقيقاً لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله ^(١) وَأَنْ يُؤْمِنَ أَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، وَهُوَ جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ أَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ وَأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ تَرِلُّ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْكَافِرِينَ بِحُكْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَتَهْوِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَتَثْبُتُ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ اللَّهِ فَيُسَاقُونَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ ^(٢) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَوْضِ الْمُرْوَدِ: حَوْضِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْرَبُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَبَعْدَ جَوَازِ الصِّرَاطِ ^(٣) مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ حَوْلَهُ أَبَارِيقُ عَدَدِهَا بِعَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ ^(٤) فِيهِ مِيزَانَانِ يَصْبَانُ فِيهِ مِنَ

(١) حديث الايمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر: الشيخان من حديث أبي هريرة ويضرب الصراط بين ظهري جهنم . ولها من حديث أبي سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قل أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفي البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلًا ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع

(٢) حديث الايمان بالحوض وانه يشرب منه المؤمنون : مسلم من حديث أنس في نزول « إنا أعطيناك الكوثر » هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة آنيته عدد النجوم . ولها من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطكم على الحوض ومن حديث ابن عمر أمالك حوض كما بين جرباء وأدرج وقال الطبراني كما بينكم وبين جرباء وأدرج وهو الصواب وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس بن سمره وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء

(٣) حديث من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولها من حديث أنس فيا من الأباريق كعدد نجوم السماء . وفي رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء

(٤) حديث فيه ميزانان يصبان من الكوثر : مسلم من حديث ثوبان يفت فيه ميزانان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق

الْكُوثَرُ^(١) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحِسَابِ وَتَفَاوَتِ النَّاسِ فِيهِ إِلَى مُنَاقَشٍ فِي الْحِسَابِ وَإِلَى مُسَامَحٍ فِيهِ، وَإِلَى مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَهُمْ الْمُتَقَرَّبُونَ، فَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى^(٢) مَنْ شَاءَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَمَنْ شَاءَ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْ تَكْذِيبِ الْمُرْسَلِينَ^(٣) وَيَسْأَلُ الْمُبْتَدِعَةَ عَنِ السَّنَةِ^(٤) وَيَسْأَلُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ^(٥) بِإِخْرَاجِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ لَا تَنْقَامَ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي جَهَنَّمَ مُوَحِّدٌ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ

(١) حديث الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه الي مناقش في الحساب ومسامح فيه والي من يدخل

الجنة بغير حساب :البيهقي في البعث من حديث عمر ققال يا رسول الله ما الايمان قل ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله - الحديث . وهو عند مسلم دون ذكر الحساب . وللشيخين من حديث عائشة من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى « فسوف يحاسب حسابا يسيرا » قال ذلك العرض ولها من حديث ابن عباس عرضت على الأمم ققيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . ولمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حزم وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بعده هذه الزيادة فقال فهلا استزدته ؟ قال : قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قل عمر فهلا استزدته ؟ قل : قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه الحديث

(٢) حديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين :

البخارى من حديث أبي سعيد يدعى نوح يوم القيامة فيقول ليك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ما أئانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث . ولابن ماجه يحيى النبي يوم القيامة - الحديث وفيه فيقال هل بلغت فومك - الحديث

(٣) حديث سؤال المبتدعة عن السنة : ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بنبيء من القدر سئل عنه

يوم القيامة . ومن حديث أبي هريرة مامن داع يدعو الى تنى الا وقف يوم القيامة لازما لدعوة مادعا اليه وان دعا رجل رجلا واسنادها ضعيف

(٤) حديث سؤال المسلمين عن الاعمال : أصحاب السنن من حديث أبي هريرة إن أول ما يحاسب به العبد

يوم القيامة من عمله صلاته - الحديث . وسيأتي في الصلاة

(٥) حديث اخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه : الشيخان من حديث

أبي هريرة في حديث طويل حتى اذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته

من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن

أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله الا الله - الحديث

مُوحَّدٌ، وَأَنْ يُؤْمِنَ ^(١) بِشَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ الشُّهَدَاءِ ثُمَّ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَسَبِ جَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَفِيعٌ، أُخْرِجَ بِفَضْلِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، فَلَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مُؤْمِنٌ بَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ فَضْلَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَتَرْتِيبَهُمْ، وَأَنْ ^(٢) أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُمَةُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ^(٣) وَأَنْ يُحَسِّنَ الظَّنَّ بِجَمِيعِ الصَّحَابَةِ، وَيُثْنِيَ عَلَيْهِمْ كَمَا أَثْنَى اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَشَهِدَتْ بِهِ الْآثَارُ. فَمَنْ اعْتَقَدَ جَمِيعَ ذَلِكَ مَوْقِفًا بِكَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَعَصَابَةِ السُّنَّةِ، وَفَارَقَ رَهْطَ الضَّلَالِ وَحِزْبَ الْبِدْعَةِ. فَتَسْأَلُ اللَّهُ كَمَالَ الْيَقِينِ، وَحَسَنَ الثَّبَاتِ فِي الدِّينِ لَنَا وَلِكافةِ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ مُصْطَفًى

الفصل الثاني

في وجه التدرج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً

(١) حديث شفاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ الشُّهَدَاءِ ثُمَّ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَفِيعٌ أُخْرِجَ بِفَضْلِ اللَّهِ فَلَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مُؤْمِنٌ بَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ ابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ بِشَفْعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَنْبِيَاءٍ ثُمَّ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ الشُّهَدَاءِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْعِلْمِ. وَلِلشَّيْخَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مِنْ وَجَسْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ فَأَخْرَجُوهُ فِي رِوَايَةٍ مِنْ خَبَرٍ وَفِيهِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى شَفَعْتَ الْمَلَائِكَةَ وَشَفَعْتَ النَّبِيِّينَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقِ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِصُ قَبْصَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا فَط - الْحَدِيثُ :

(٢) حديث أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُمَةُ ثُمَّ عَلِيٌّ الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كُنَّا نَخِيرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخِيرَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ وَلِأَبِي دَاوُدَ كَلَامًا يَقُولُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ أَفْضَلُ أُمَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ زَادَ الطَّبْرَانِيُّ وَيَسْمَعُ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَنْكَرُهُ

(٣) حديث أَحْسَانَ الظَّنِّ بِجَمِيعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّشَاءُ عَلَيْهِمُ التَّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي وَلِلشَّيْخَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي. وَلِلطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابِي فَأَمْسَكُوا

ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ، فابتدأوه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق به ، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلب الانسان أن شرحه في أول نشوئه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرد والتقليد المحض ، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء ، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه ، فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل ، وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام ، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره ، وقراءة الحديث ومعانيه ، ويشغل بوظائف العبادات ، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه ، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها ، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها ، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم ، وسياهم وسماعهم وهياتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له ، فيكون أول التلقين كاللقاء بذرفي الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء

وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة ، فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده ، وما يفسده أكثر مما يصلحه ، بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب ، والمشاهدة تكفيك في هذا يانا ، فناهيك باليمان برهانا

فقس عقيدة أهل الصلاح والتق من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق ، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيطة مرسل في الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا ، الامن سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً ، كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً اذ لافرق في التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول ، فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه

ثم الصبي اذا وقع نشوؤه على هذه العقيدة ان اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها ، ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظواهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً . وإن

أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة ، وساعده التوفيق حتي اشتغل بالعمل ، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى ، واشتغل بالرياضة والمجاهدة ، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) . وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقرين ، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق . وانكشف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن ، في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى ، وفي الاستضاءة بنور اليقين ، وذلك كثافات الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم ، إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه

مسئلة

فان قلت : تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب اليه ؟
فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف : فمن قائل إنه بدعة وحرام ، وإن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل أنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان ، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فانه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله تعالى

والى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الاعلى رحمه الله : سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمي المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه . وقال أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكرايسي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله . ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا : فقال حفص الفرد :

لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه . وقال أيضا : لو علم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد . وقال أيضا اذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بانه من أهل الكلام ولا دين له . قال الزعفرانى قال الشافعى حكى فى أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام

وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل . وبالع فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه . كتابافى الرد على المبتدعة ، وقال له ويحك أأست تحكى بدعتهم أو لا ثم ترد عليهم ! أأست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ! وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة

وقال مالك رحمه الله : أأأيت إن جاءه من هو أجدل منه أأدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق

وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر : ولذلك : قال النبى صلى الله عليه وسلم ^(١) « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ؟ » أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء

واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه ^(٢) فقد علمهم الاستنجاء ^(٣) ونَدَبَهُمْ إِلَى عِلْمِ

(١) حديث هلك المتنطعون مسلم من حديث ابن مسعود

(٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء مسلم من حديث سلمان الفارسى

(٣) حديث نَدَبَهُمْ إِلَى عِلْمِ الفرائض وأُثْنِيَ عَلَيْهِمْ : ابن ماجه من حديث أبى هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث وللترمذى من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت

الْفَرَائِضِ وَأُثْنِيَ عَلَيْهِمْ^(١) وَنَهَاهُمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ وَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْقَدَرِ « وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الاستاذ طغيان وظلم ، وهم الاستاذون والقُدوة ، ونحن الاتباع والتلامذة -

وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض . وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعدها الصحابة رضي الله عنهم فلا أمر فيه قريب ، إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعديّة وفساد الوضع ، الى جميع الاسئلة التي تورّد على القياس ، لما كانوا يفقهونه فاحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كاحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح .

وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نغني به الا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع ، فنأين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟

وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والمداوة والبغضاء وما يفضى اليه الكلام ، فذلك محرم ، ويجب الاحتراز عنه ، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى اليه علم الحديث والتفسير والفقه ، وهو محرم يجب الاحتراز عنه ، ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه اليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) . وقال عز وجل : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) . وقال تعالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا) - أي حجة وبرهان . وقال تعالى : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) - وقال تعالى : (أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حُاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) إلى قوله : (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) اذ ذكر سبحانه احتجاج ابراهيم ومجادلته واخفاه خصمه في معرض الشناء عليه . وقال عز وجل : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) : وقال تعالى : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) وقال تعالى في قصة فرعون : (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلى قوله : (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

وعلى الجملة فالقرءان من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار . فعمدة أدلة المتكلمين في

(١) حديث نهام عن الكلام في القدر وقال : أَمْسِكُوا : تقدم في العلم

التوحيد قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) . وفي النبوة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) وفي البعث : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) الى غير ذلك من الآيات والأدلة

ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى : (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فالصحابة رضى الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة ، وكانت الحاجة اليه قليلة في زمانهم

وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة الى الحق على بن أبي طالب رضى الله عنه ، اذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما الى الخوارج فكلّمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغم . فقال : ذلك في قتال الكفار ، أرايتم لو سبيت عائشة رضى الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضى الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ، فرجع منهم الى الطاعة بمجادلته ألقان وروى أن الحسن ناظر قَدْرِيَا فرجع عن القدر . وناظر على بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية . وناظر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يزيد بن عميرة في الايمان ، قال عبد الله لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة ، فقال له يزيد بن عميرة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك ، وهل الايمان الا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ، ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول انا مؤمنون ولا نقول انا من أهل الجنة ، فقال ابن مسعود : صدقت والله إنها مني زلة ، فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا ، وعند الحاجة لا بطريق التنصيف والتدريس واتخاذ صناعة ، فيقال اما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة اذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان

واما القصر فقد كان الغاية إخماد الخصم واعترافه وانكشاف الحق وازالة الشبهة ، فلو طال إشكال الخصم أو لجأه لطال لا محالة إلزامهم ، وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها

وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث

أيضاً ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الدور إما ادخاراً ليوم وقوعها وإن كان نادراً ، أو تشجيذاً للخواطر ، فنحن أيضاً نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة ، أو هيجان مبتدع ، أو لتشجيع الخاطر ، أو لادخار الحجة حتي لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يمد السلاح قبل القتال ليوم القتال . فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين

فان قلت : فما المختار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ ، بل لا بد فيه من تفصيل . فاعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأغنى بقولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ، ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار ، وإباحة تجرع الخمر إذا غص الانسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر . وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار ، والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين ، فإنه يحرم لما فيه من الاضرار . وهذا ينقسم إلى ما يضر قليلاً وكثيره ، فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليلاً وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل ، فإن كثيره يضر بالمحور ، وكأكل الطين وكان إطلاق التحريم على الطين والخمر ، والتحليل على العسل ، التفات إلى أغلب الأحوال . فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل

فنعو إلى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام . أما مضرته فإثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وإزالتها عن الجزم والتصميم ، فذلك مما يحصل في الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص . فهذا ضرره في الاعتقاد الحق

وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيتته في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الأصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل ، ولذلك ترى المبتدع العاصي يمكن أن يزول اعتقاده باللطف في أسرع زمان ، إلا

إذا كان نشؤه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب ، فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره ، بل الهوى والتعصب وبنفض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من ادراك الحق ، حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالبيان أن الحق مع خصمك ، لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه . وهذا هو الداء المضال الذي استطار في البلاد والعباد ، وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب . فهذا صرره

وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا . فأسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود

ولعمري لا يتفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ، ولكن على الدور في أمور جليلة تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام ، بل منفعته شيء واحد ، وهو حراسة العقيدة التي ترجعناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل ، فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه ، والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها ، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم ، وأجمع السلف الصالح عليها ، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة ، كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب . وإذا وقعت الاحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر ، إذ لا يضعه إلا في موضعه ، وذلك في وقت الحاجة ، وعلى قدر الحاجة

وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه ، فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يشير لهم شكا ، ويزلزل عليهم الاعتقاد ، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح

وأما العامي المعتقد للبدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب ، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير ، فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين ، إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده . فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرّون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام ، وكذا من وقع في شك ، إذ يجب إزالته بالطف والوعظ ، والأدلة القرينية المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام

واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق ، وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواظع والتحذيرات العامة ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل . فجاز أن يلقي إليه

وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ، ولا يتعرض للأدلة ، ويتربص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة . فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا ، فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم . وهذا مقدار مختصر . وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره

فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة ، وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد ، إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين

فإن أقنعه ذلك عنه ، وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة ، والداء غالباً ، والمرض سارياً ، فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه ، وينتظر قضاء الله تعالى فيه ، إلى أن ينكشف له الحق بتنبه من الله سبحانه ، أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه

فأما الخارج منه فقسمان (أحدهما) بحث عن غير قواعد العقائد، كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان، وعن الإدراكات، وعن الخوض في الرؤية: هل لها ضد يسمى المنع أو العمى؛ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى، أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته. منع بحسب عدده، إلى غير ذلك من الترهات المضلات. والقسم الثانى: زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد، وزيادة أسئلة وأجوبة، وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضللاً وجهلاً فى حق من لم يقنعه ذلك القدر. فرب كلام يزيد الإطناب والتقرير عمومًا

ولو قال قائل: البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشجيد الخواطر، والخطاير آلة الدين كالسيف آلة الجهاد، فلا بأس بتشجيده، كان كقوله لعب الشطرنج يشجذ الخطاير فهو من الدين أيضاً، وذلك هوس، فإن الخطاير يتشجذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام، والحال التى يذم فيها، والحال التى يحمدها فيها، والشخص الذى ينتفع به، والشخص الذى لا ينتفع به

فان قلت مهما اعترفت بالحاجة اليه فى دفع المبتدعة، والآل قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرها، وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو ترك بالكلية لا ندرس، وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم، فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات، بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم، فان الحاجة ما كانت ماسة اليه فاعلم أن الحق أنه لا بد فى كل بلد من قائم بهذا العلم، مستقل بدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة، وذلك يدوم بالتعليم، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فان هذا مثل الدواء والفقه مثل الغداء، وضرر الغداء لا يحذر، وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر

فالعلم ينبغى أن يخص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال (أحداها) التجرد للعلم والحرص عليه، فان المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

(الثانية) الذكاء والفطنة والفصاحة ، فان البليد لا ينتفع بفهمه والقدم لا ينتفع بحجابه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه

(الثالثة) أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ، ولا تكون الشهوات غالبية عليه ، فان الفاسق بادئ شبهة ينخلع عن الدين ، فان ذلك يحل عنه الحبر ويرفع السد الذي بيده وبين الملاذ ، فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتتمها ليتخلص من أعباء التكليف ، فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه

واذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القراءان من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب ، المقنعة للنفوس ، دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس ، وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتليس . فاذا قابله مثله في الصنعة قاومه . وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه ، وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره ، كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة ، وذلك محمود في كل حال . نعم : قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقتها ، فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك . فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها ، وحكم طريق النضال عنها وحفظها . فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة ، فلا مفتاح له الا المجاهد ، وقع الشهوات والاقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات ، وهي رحمة من الله عز وجل تقيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب ، وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله

مسألة

فان قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلي يبدو أولا ، وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب ، وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع ، إذ

ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن ، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه فاعلم أن انقسام هذه العلوم الى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيره ، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجدوا عليه ، فلم يكن لهم ترق الى شأ والعلاء ، ومقامات العلماء والأولياء ، وذلك ظاهر من أدلة الشرع . قال صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَحَدًّا وَمَظْلَمًا » وقال على رضي الله عنه وأشار الى صدره : ان ها هنا علوما جملة لو وجدت لها حاملة . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَمْرُنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) « مَا حَدَّثَ أَحَدٌ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَمْ يَبْلُغْنَهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » وقال الله تعالى : (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٤) « إِنَّ مِنْ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى » الحديث الى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أولمضى آخر ، فلم لم يذكره لهم ، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) : لو ذكرت تفسيره لرجتموني . وفي لفظ آخر لقلم إنه كافر وقال أبو هريرة رضي الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « مَا

(١) حديث ان القرآن ظاهرا وباطنا الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه

(٢) حديث نحن معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على عقولهم - الحديث : تقدم في العلم

(٣) حديث ما حدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم - الحديث : تقدم في العلم

(٤) حديث ان من العلم كهية للكون - الحديث تقدم في العلم

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجه من حديث عائشة وأنس

(٦) حديث ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام - الحديث : تقدم في العلم .

فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِسِرِّ وَقَرٍّ فِي صَدْرِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها ، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره

وقال سهل التستري رضى الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، وعلم باطن لا يسهه إظهاره إلا لأهله ، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض المارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهره لبطلت الأحكام وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فاذكره ليس بحق ، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه ، وأن الكامل من لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة

مسألة

فان قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلاب ، فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن ، فان الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة ، وهو كفر ، لان الشريعة عبارة عن الظاهر ، والحقيقة عبارة عن الباطن ، وإن كان لا يباقضه ولا يخالفه فهو هو ، فيزول به الانقسام ، ولا يكون للشرع سر لا يفشى ، بل يكون الخفى والجلي واحداً

فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما ، وينجرّ الى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة ، وهو غرض هذه الكتب ، فان المقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها ، لا بأن يتوصل الى أن ينكشف لنا حقائقها ، فان ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشطر الاول من الكتاب وانما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ، ولكن اذا ابجر الكلام الى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله :

فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر ، فهو الى الكفر أقرب منه الى الايمان ، بل الأسرار التي يختص بها المقربون يدركها ، ولا يشاركونها الكثرون في .

عملها ، ويمتنعون عن إفشائها اليهم ترجع الى خمسة أقسام
القسم الأول - أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكلّ أكثر الأفهام عن دركه ، فيختص
بدركه الخواص ، وعليهم أن لا يفشوه الى غير أهله ، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر
أفهامهم عن الدرك . وإخفاء سر الروح ^(١) « كَفُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيَانِهِ » من
هذا القسم ، فإن حقيقته مما تكلّ الأفهام عن دركه ، وتقصر الأوهام عن تصوّر كنهه

ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن من لم يعرف
الروح فكأنه لم يعرف نفسه ، ومن لم يعرف نفسه ، فكيف يعرف ربه سبحانه ؟ ولا يبعد أن
يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء ، وإن لم يكونوا أنبياء ، ولكنهم يتأدبون بأداب
الشرع فيسكتون عما سكت عنه ، بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير
عن دركه ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها الا الظواهر للأفهام : من العلم ،
والقدرة ، وغيرها ، حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها الى علمهم وقدرتهم ، اذ كان لهم من
الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة ، فيتوهمون ذلك بنوع مقايضة ، ولو ذكر من صفاته ما ليس
للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع اذا ذكرت للصبي أو العنبر
لم يفهمها الا بمناسبة الى لذة المطعوم الذي يدركه ، ولا يكون ذلك فهماً على التحقيق . والمخالفة بين
علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل

وبالجملة فلا يدرك الانسان الا نفسه وصفات نفسه مما هي حاضرة له في الحال ، أو مما كانت
له من قبل ، ثم بالمقايضة اليه يفهم ذلك لغيره ، ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتاً في الشرف والكمال ،
فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها
من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف ، فيكون معظم تحويمه على صفات نفسه لا على
ما اختص الرب تعالى به من الجلال ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ
كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وليس المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته ، بل هو اعتراف بالقصور

(١) حديث كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح الشيخان من حديث ابن مسعود حين

سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً - الحديث :

(٢) حديث لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده

عن إدراك كنه جلاله . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصديق رضى الله عنه : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط . ولنرجع الى الفرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن أدراكه ، ومن جملته الروح ، ومن جملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة الى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَبْعِينَ حِجَابًا مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَهَا لِأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَهُ » بَصَرُهُ

القسم الثانى — من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ، ولكن ذكره يضر بآكثر المستعمين ، ولا يضر بالأنبياء والصديقين . وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس ببصار الخفافيش ، وكما تضر رباح الورد بالجعل ، وكيف يبعد هذا وقولنا أن الكفر والزنا والمعاصى والشروع كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيتته حق فى نفسه وقد أصر سماعه بقوم ، إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ، وتقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم . وقد ألحد بن الرواندى وطائفة من المخدولين بمثل ذلك ، وكذلك سر القدر ، ولو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم . ولو قال قائل : ان القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل ، لكان مفهوما ، ولكن لم يذكروا لمصلحة العباد وخوفهم من الضرر ، فلعل المدة اليها بعيدة فيطول الامل ، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قلّا كثرائها ، ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ، ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا . فهذا المعنى لو أتمجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

(١) حديث ان لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور واسناده ضعيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال ان بينى وبينه سبعين حجابا من نور وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل بن سعد دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبى موسى حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ولا بن ماجه شئ أدركه بصره

القسم الثالث - أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ، ولكن
يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ، ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب ، وله مصلحة في
أن يعظم وقع ذلك الأمر في قلبه ، كما لو قال قائل : رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير ،
فكني به عن افشاء العلم وبث الحكمة الى غير أهلها ، فالمستمع قد يسبق الى فهمه ظاهر
اللفظ ، والمحقق اذا نظر وعلم أن ذلك الانسان لم يكن معه در ولا كان في موضعه خنزير
تفطن لدرك السر والباطن ، فيتفاوت الناس في ذلك . ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك * متقابلان على السماك الأعزل
لازال ينسج ذاك خرقة مدبر * ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى في الاقبال والادبار برجلين صانعين . وهذا النوع يرجع إلى
التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ^(١)
إِنَّ الْمَسْجِدَ لَيَنْزَوِي مِنَ النَّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِي الْجِلْدَةُ عَلَى النَّارِ « وأنت ترى أن ساحة المسجد
لا تنقبض بالنخامة . ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمي النخامة فيه تحقير له ، فيضاد
معنى المسجدية مضادة النار لانصال أجزاء الجلدة . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ^(٢) « أَمَّا
يَخْتَنِي الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوَّلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ ؟ » وذلك من
حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعنى هو كائن ، إذ رأس الحمار لم
يكن بحقيقته لكونه وشكله ، بل بخاصيته وهى البلادة والحمق . ومن رفع رأسه قبل الامام
فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود ، دون الشكل الذي هو قالب
المعنى ، اذ من غاية الحق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان
وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى
أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم : ^(٣) « قَلْبُ
الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع

(١) حديث ان المسجد لينزوي من النخامة - الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الامام - الحديث : أخرجاه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل في كآيته عن الاقتدار قوله تعالى : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فان ظاهره ممتنع ؛ إذ قوله : (كن) إن كان خطابا للشئ قبل وجوده فهو محال ؛ إذ المعلوم لا يفهم الخطاب حتى يمثل ، وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهم غاية الاقتدار عدل اليها

وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ، ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) الآية ، وأن معنى الماء ها هنا هو القرآن ، ومعنى الأودية هي القلوب ، وأن بعضها احتملت شيئا كثيرا ، وبعضها قليلا ، وبعضها لم يحتمل ، والزبد مثل الكفر والنفاق ، فانه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فانه لا يثبت ، والهداية التي تنفع الناس تمكث . وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط وغيرها ، وهو بدعة ، إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية ، وإجراؤه على الظاهر غير محال ، فيجب إجراؤه على الظاهر

القسم الرابع - أن يدرك الانسان الشئ جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له ، فيتفاوت العمان ويكون الأول كالقشر ، والثاني كاللباب ، والأول كالظاهر ، والثاني كالباطن ، وذلك كما يتمثل للانسان في عينه شخص في الظامة أو على البعد فيحصل له نوع علم ، فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والايان والتصديق ، إذ قد يصدق الانسان بوجود المشق والمرض والموت قبل وقوعه ، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع ، بل للانسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة . (الأول) تصديقه بوجوده قبل وقوعه . (والثاني) عند وقوعه (والثالث) بعد تصرمه ، فان تحققك بالجرع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال . وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت

الخلق ، وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر ، بل يتممه ويكمّله كما يتمم اللب القشر . والسلام
القسم الخامس — أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر
ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه . وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتد : لم
تشقني ؟ قال : سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي . فهذا تعبير عن لسان الحال
بلسان المقال . ومن هذا قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ
أُتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) . فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لهما حياة وعقلا ،
وفهما للخطاب ، وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت
وتقولان : أتينا طائعين ، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال ، وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين
بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير . ومن هذا قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)
فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحانه الله
ليتحقق تسبيحه ، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان ، بل كونه مسبحا بوجوده ، ومقدسا
بذاته ، وشاهدا بوحدانية الله سبحانه ، كما يقال

وفي كل شيء له آية . تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانها بحسن التدبير وكمال العلم ، لا بمعنى أنها
تقول أشهد بالقول ، ولكن بالذات والحال . وكذلك : ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه
إلى موجد يوجده ويقيمه ويديم أوصافه ويردده في أطواره : فهو بحاجة يشهد لخالقه بالتقديس ،
يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر ، ولذلك قال تعالى : (وَلَكِنْ
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) . وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا . وأما المقربون والعلماء الراسخون
فلا يفقهون كنهه وكماله ؛ إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسيّحه ، ويدرك
كل واحد بقدر عقله وبصيرته . وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضا
مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر

وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد : فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى
إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها ، حتى حملوا قوله تعالى : (وَتَكُونُنَا أَيْدِيَهُمْ
وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) وقوله تعالى : (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كل شيء) وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير ، وفي الميزان والصراف والحساب ، ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم : (أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال

وغلا آخرون في حسم الباب ، منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله : (كُنْ فَيَكُونُ) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل مكون ، حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ : قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « قَلْبُ الْمُؤْمِنِينَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » وقوله صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إِنِّي لَأَجِدُ نَفْسَ الرَّحْمَنِ مِنْ جَانِبِ الْيَمَنِ » ومال الى حسم الباب أرباب الظواهر والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار ، والنزول ليس هو الانتقال ، ولكنه منع من التأويل حسما للباب ، ورعاية لصالح الخلق ، فانه إذا فتح الباب اتسع الخرق ، وخرج الأمر عن الضبط ، وجاوز حد الاقتصاد ، إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط ، فلا بأس بهذا الزجر

ويشهد له سيرة السلف ، فأنهم كانوا يقولون أمرّوها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وذهبت طائفة الى الاقتصاد ، وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ، ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية ، وأولوا كونه سميعا بصيرا ، وأولوا المعراج ، وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأولوا عذاب القبر ، والميزان ، والصراف ، وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أقرّوا بجسر الأجساد ، وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود ويذيب الشحوم

(١) حديث الحجر يمين الله في الأرض الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو

(٢) حديث انى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه وأجد نفس ربكم من قبل اليمين ورجاله ثقات

ومن ترقيعهم الى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد في الآخرة ، وردوه الى آلام عقلية وروحانية ، ولذات عقلية ، وأنكروا حشر الأجساد ، وقالوا ببقاء النفوس ، وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس . وهوؤلاء هم المسرفون

وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه الا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسمع . ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا الى السمع والألفاظ الواردة : فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه ، وما خالف أولوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد ، فلا يستقر له فيها قدم ، ولا يتعين له موقف ، والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله

والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة ، والقول فيه يطول ، فلا نخوض فيه . والعرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له . فقد انكشفت بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة

وإذا رأينا أن تقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حررناها ، وأنهم لا يكفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق ، فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ، ولنقتصر فيها على ما حررناه لأهل القدس ، وسميناه الرسالة القدسية في قواعد العقائد ، وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس

فنقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين ، وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين ، وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ، ووقفهم للاقتداء بسبيل المرسلين ، وسدّ دهم للتأسي بصحبه الأكرمين ، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالجل المتين ، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا

بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محذور ، إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلتي الشهادة على إنجازها تتضمن إثبات ذات الاله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ، ويدور كل ركن منها على عشرة أصول :

الركن الأول : في معرفة ذات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : العلم بوجود الله تعالى ، وقدمه ، وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ، ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة ولا مستقراً على مكان ، وأنه يرى ، وأنه واحد

الركن الثاني : في صفاته ، ويشتمل على عشرة أصول ، وهو : العلم بكونه حياً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، منزهاً عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام ، والعلم ، والإرادة

الركن الثالث : في أفعاله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها مكتسبة للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع ، وأن له تعالى تكليف مالا يطاق ، وأن له إيلاء البرى ، ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع ، وأن بعثه الأنبياء جائز وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزات

الركن الرابع : في السمعيات ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : إثبات الحشر ، والنشر ، وسؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وخلق الجنة والنار ، وأحكام الإمامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الإمامة

فلما الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول: معرفة وجوده تعالى

وأول ما يستضاء به من الأنوار، ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان. وقد قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) وقال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا، وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) وقال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) إلى قوله: (لِلْمُؤْمِنِينَ) فليس يخفى على من معه أدنى مُسَكَّة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخير، ومصرفة بمقتضى تديره، ولذلك قال الله تعالى: (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ). ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: لا إله إلا الله، وما أمروا أن يقولوا: لنا إله وللعالم إله، فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ شوم وفي عنفوان شبابهم

ولذلك قال عز وجل : (وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فإذا في فطرة الانسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان ، ولكننا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول :

من بدائه العقول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث ، فإذا لا يستغنى في حدوثه عن سبب . أما قولنا : إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب فجلي ، فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديره وتأخير ، فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة الى المخصص . وأما قولنا : العالم حادث ، فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون ، وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى :

الأولى : قولنا : إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون ، وهذه مدركة بالبدية والاضطرار ، فلا يحتاج فيها إلى تأمل واقتكار ؛ فإن من عقل جسم لا ساكنا ولا متحركا ، كان لمن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا

الثانية : قولنا : إنهما حادثان . ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض ، وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما يشاهد منها وما لم يشاهد . فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته ، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه ، فالطاريء منها حادث لطريانه ، والسابق حادث لعدمه ، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ، على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس

الثالثة : قولنا : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجمليتها لا تنتهي النوبة الى وجود الحادث الحاضر في الحال ، وانقضاء ما لا نهاية له محال ؛ ولأنه لو كان للفلك دورات لانهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترا ، أو شفعا وتراجيعا ، أو لا شفعا ولا وترا ، ومحال أن تكون شفعا وتراجيعا ، أو لا شفعا ولا وترا ؛ فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات ، إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر ، وفي نفي أحدهما إثبات الآخر ، ومحال

أن يكون شفعاً ؛ لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد ، وكيف يعوز ما لا نهاية له واحد ؟ !
ومحال أن يكون وتراً إذ الوتر يصير شفعاً بواحد ، فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية
لأعدادها ؟ ومحال أن يكون لاشفعاً ولا وتراً ، إذ له نهاية . فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو
عن الحوادث فهو إذا حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة

الأصل الثاني

العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل أزلي ليس لوجوده أول بل أول كل شيء وقبل كل ميت وحي
وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث ، واقتقر محدثه إلى
محدث ، وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل ، أو ينتهي إلى محدث قديم هو
الأول ، وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه

الأصل الثالث

العلم بأنه تعالى مع كونه أزلياً أبدياً ليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ،
لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه

وبرهانه : أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بعدمه يضاده ، ولو جاز أن
ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه ، فكما يحتاج طريان
الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب ، وباطل أن ينعدم بعدمه يضاده ،
لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصوّر الوجود معه ، وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده
وقدمه ، فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده ؟ فإن كان الضد المعدم حادثاً كان محالاً إذ
ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى
يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع ، والقديم أقوى وأولى من الحادث

الأصل الرابع

العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز ، بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز
وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه
أو متحركاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان ، وما يخلو عن الحوادث فهو
حادث ، ولو تصوّر جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فإن سماه مستمّ جوهرًا

ولم يرد به التحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهرًا مخصوصًا بحيز بطل كونه جسمًا ، لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جواهر ، فالجوهر يستحيل خلوه عن الاقتراق والاجتماع ، والحركة والسكون ، والهيئة والمقدار . وهذه سمات الحدوث ، ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم ، لجاز أن يعتقد الالهية للشمس والقمر ، أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسمًا من غير إرادة التأليف من الجواهر ، كان ذلك غلطًا في الاسم ، مع الإصابة في نفي معنى الجسم

الأصل السادس

العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل ، لأن العرض ما يحل في الجسم ، فكل جسم فهو حادث لا محالة ، ويكون محدثه موجودًا قبله ، فكيف يكون حالًا في الجسم وقد كان موجودًا في الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق ، كما سيأتي بيانه ، وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض ، بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه ، مستقل بذاته ، وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ، ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام ، فإذا لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء ، بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء . وأنى يشبه المخلوق خالقه ، والمقدور مقدره ، والمصور مصوره والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه ؟ ! فاستحال القضاء عليها بمائلته ومشايعته .

الأصل السابع - العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات

فان الجهة إما فوق ، وإما أسفل ، وإما يمين ، وإما شمال : أو قدام ، أو خلف . وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان ، إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلاً ، والآخر يقابله ويسمى رأساً . فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس ،

واسم السفلى لما يلي جهة الرجل ، حتى إن النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة
 الفوق في حقها تحتاً ، وإن كان في حقنا فوقاً . وخلق للإنسان اليدين وإحداها أقوى من الأخرى
 في الغالب ، فحدث اسم اليمين للأقوى ، واسم الشمال لما يقابله ، وتسمى الجهة التي تلى اليمين
 يمينا ، والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه ، فحدث اسم القدم
 للجهة التي يتقدم إليها بالحركة ، واسم الخلف لما يقابلها : فالجهات حادثه بحدوث الإنسان ، ولولم
 يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة ، لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة ،
 فكيف كان في الأزل مختصا بجهة والجهة حادثه ؟ أو كيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له :
 أبأن خلق العالم فوقه ، وتعالى عن أن يكون له فوق ، إذ تعالى أن يكون له رأس ،
 والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس ، أو خلق العالم تحته ، فتعالى عن أن يكون له تحت إذ
 تعالى عن أن يكون له رجل ، والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل ، وكل ذلك مما يستحيل في
 العقل ، ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر ، أو مختص
 بالجواهر اختصاص العرض ، وقد ظهر استحالة كونه جوهرًا أو عرضا ، فاستحال كونه مختصا
 بالجهة . وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا في الاسم مع المساعدة على المعنى ، ولأنه
 لو كان فوق العالم لكان محاذيا له ، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر ،
 وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ، ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر . فأما رفع
 الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء ، فهو لأنها قبلة الدعاء ، وفيه أيضا إشارة إلى ما هو
 وصف للمدعو من الجلال والكبرياء ، تنبيهها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء ، فإنه
 تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء

الأصل الثامن

العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء ، وهو الذي
 لا ينافي وصف الكبرياء ، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذي أريد بالاستواء
 إلى السماء حيث قال في القرآن : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) وليس ذلك إلا بطريق
 القهر والاستيلاء ، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مہراق
واضطر أهل الحق الى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطل الى تأويل قوله تعالى : (وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم :
« قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » على القدرة والقهر ، وحمل قوله صلى الله
عليه وسلم : « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ بَيْنَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » على التشريف والإكرام ؛ لأنه لو ترك على
ظاهره للزم منه المحال ، فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن
جسماً مماساً للعرش ، إما مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وذلك محال ، وما يؤدي الى المحال فهو محال

الأصل التاسع

العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئياً
بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار ، لقوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى
رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) ولا يرى في الدنيا تصديقا لقوله عز وجل : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَارَ) ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام : (لَنْ تَرَانِي) . وليت شعري
كيف عرف المعتزلي من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟ وكيف سأل
موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالاً ؟ ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجبهة
الاعبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم !

وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر ، فهو أنه غير مؤد الى المحال ، فإن الرؤية نوع
ككشف وعلم ، إلا أنه أتم وأوضح من العلم . فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز
تعلق الرؤية به وليس بجهة . وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم ، جاز أن
يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كمية وصورة ، جاز أن يرى كذلك

الأصل العاشر

العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له ، فرد لا ند له ، انفرد بالخلق والابداع
واستبد بالإيجاد والاختراع ، لا مثل له يساويه ويساويه ، ولا ضده فينازعه ويناوليه .
وبرهانه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) وبإيانه : أنه لو كانا اثنين وأراد

أحدهما أمراً فالثاني إن كان مضطراً الى مساعدته كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولم يكن إلهاً قادراً ، وإن كان قادراً على مخالفته ومداغمته كان الثاني قوياً قاهراً ، والأول ضعيفاً قاصراً ولم يكن إلهاً قادراً

(الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأول

العلم بأن صانع العالم قادر ، وأنه تعالى في قوله : (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) صادق ، لأن العالم محكم في صنعه ، مرتب في خلقته ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لاستطاعة له ، أو عن إنسان لافدرته له ، كان منخلعاً عن غريزة العقل ، ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل

الأصل الثاني

العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ، ومحيط بكل المخلوقات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، صادق في قوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف ، والصنع المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف ، على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف ، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف

الأصل الثالث

العلم بكونه عز وجل حياً ، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند تردها في الحركات والسكنات ، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انماس في غمرة الجهالات والضلالات

الأصل الرابع

العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله ، فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن

إرادته ، فهو المبدىء المعيد ، والفعال لما يريد ، وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه
أمكن أن يصدر منه ضده ، وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده ، والقدرة
تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة ، فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين ،
ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذى سبق العلم
بوجوده ، لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال : وجد بغير قدرة ، لأنه سبق العلم بوجوده فيه

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هو اجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ،
ولا يشذ عن سمعه صوت ديب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وكيف
لا يكون سميا بصيرا والسمع والبصر كالاحالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل
من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعدل القسمة مهما وقع القص فى
جهته والكمال فى خلقه وصنفته ؟ أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه
إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا ، فقال له : « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا »
ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته سافطة ، ولم يصدق قوله
تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة ، وعالما بلا
قلب ودماغ ، فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة ، وسميا بلا أدن ، إذ لا فرق بينهما

الأصل السادس

أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ،
بل لا يشبه كلامه كلام غيره ، كما لا يشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس ،
وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها نارة بالحركات والإشارات ، وكيف التمس
هذا على طائفة من الأعياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء ، حيث قال قائلهم :

إن الكلام لى القواد وإنما * جعل اللسان على القواد دليلا !

ومن لم يعقله عقله ولا بهاه فهمه عن أن يقول : لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه
قد رأتى الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك ، وكف عن خطابه لسانك . ومن لم يفهم
أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء ، وأن الباء قبل السين فى قولك : بسم الله ، فلا يكون

السين المتأخر عن الباء قديماً ، فزده عن الالتفات إليه قلبك ، فلاه سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ، ومن يضل الله فما له من هاد ، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاماً ليس بصوت ولا حرف فليستكر أن يرى في الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره ، فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات ، فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه بالعبارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحديقة من غير أن تحمل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحديقة والقلب والورقة ، فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة ، محفوظاً في القلوب ، مكتوباً في المصاحف ، من غير حلول ذات الكلام فيها ، إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق ، وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ، ولا حرق

الاصل السابع

أن الكلام القائم بنفسه قديم ، وكذا جميع صفاته ، إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث داخل تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعثره التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفاً بحامد الصفات ، ولا يزال في أبده كذلك منزلها عن تغير الحالات ، لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وإنما ثبت نعمت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف ، فكيف يكون خالقها مشاركا لها في قبول التغير ، وينبئ على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته ، وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه . وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده ، حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علماً متعلقاً بما في قلب أبيه من الطلب ، صار مأموراً بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له ، فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل : (أَخْلَعْ لَعَلَّيْكَ) بذات الله ، ومصير موسى عليه السلام مخاطباً به بعد وجوده ، إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب ، وسمع لذلك الكلام القديم

الأصل الثامن

أن علمه قديم ، فلم يزل عالما بذاته وصفاته ، وما يحدثه من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها ، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى ، إذ لو خلق لنا علم بقدم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك علم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجديد علم آخر . فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى

الأصل التاسع

أن إرادته قديمة ، وهى فى القدم تملت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى ، إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها ، كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست فى ذاتك ، وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ، ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية . ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة

الأصل العاشر

أن الله تعالى عالم بعلم ، حى بحياة ، قادر بقدره ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر . وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم ، كقوله : غنى بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فان العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل . وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتل ولا يتصور قتل بلا قاتل ولا قتل ، كذلك لا يتصور عالم بلا علم ، ولا علم بلا معلوم ، ولا معلوم بلا عالم . بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل لا ينفك بعض منها عن البعض : فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم ، وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى وأوله الركن الثالث من أركان الإيمان)